أعلام العرب

٧٧

"أبو الريحان محمد بن أحمد"

البيرونى

تأليف:

دكتور محمد جمال الفندى

دكتور إمام إبراهيم أحمد

للطباعة والنشر

مايو ١٩٦٨

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com
twitter مكتبة لسان العرب
facebook مكتبة لسان العرب
instagram مكتبة لسان العرب

أعلام العرب

٧٧

أبو الريحان محمد بن أحمد

البيرونى

تأليف :

دكتور محمد جمال الفندى
دكتور إمام ابراهيم أحمد

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
فرع مصر - ١٩٦٨

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل lisanerab.com

مقدمة الكتاب

عندما نحاول الكتابة عن البيرونى لا نجد مفرا من التعليق على تراث العرب العلمى بصفة عامة ، وما عاصر النهضة العربية العظمى فى العصرين الأموى والعباسى من أحداث كانت تجرى فى أوربا ، ولا نجد مفرا كذلك من تعقب التطورات الفكرية عند العرب حتى نصل الى عهد البيرونى الذى امتاز بوفرة الانتاج العلمى والأدبى على الرغم من ضعف الدولة السياسى وتدهور السلطان فى بغداد .

وسيجد القارىء أن مضمون الموضوعات التى تعرضنا لها من ألزم ما يكون لشبابنا اليوم، وأننا لم نهتم بالناحية التاريخية واللغوية قدر اهتمامنا بالنواحى التحليلية العلمية التى فاضت بها أعمال البيرونى ، ذلك الذى يقول عنه العلامة الألمانى المستشرق (سخاو) أنه أعظم عقلية عرفها التاريخ .

وعلى هذا النحو انقسم الكتاب الى فصول ستة عالجنا فى الفصل الأول منها نزعات العرب الفكرية ومذاهبهم الفلسفية والاسلام كقوة دافعة للأمة العربية ومميزات التراث العلمى العــربى وأســـلوب العــــرب فى كتابة التراجم وعصر البيرونى . وأفردنا الفصل الثانى لترجمة حياة البيرونى وأهم مؤلفاته وأسلوبه الكتابى والعلمى.

وتعالج الفصـــول الثالث والرابع والخامس والســـــادس على الترتيب مؤلفات البيرونى الكبرى المتعلقة بموضوعات :

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة .

رسائل البيرونى .

تحـــديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن .

القانون المسعودى .

وبطبيعة الحـــــال لم يتسع المجال لمعالجة جميع مؤلفات هـــــذا العالم المرموق ، أو حتى تغطية جميع مؤلفاته الهــــامة ، ولذلك اكتفينا بهذه الموضوعات المتباينة .

٧ نوفمبر ١٩٦٧

الفصل الاول

نبذة عن التفكير العلمى فى أوربا حتى القرن السابع عشر

استمدت الحضارة الحديثة ولا شك عناصر نشأتها ودعائم أو أسس بنائها من حضارة العرب التى حررت الفكر وأطلقت العقل من عقاله ومن قيود محاكم التفتيش ورواسب الوثنية الاغريقية . ولم ينحصر فضل العرب ـ كما يقول البعض ـ فى مجرد المحافظة على بعض تراث الاغريق الفكرى ونقله الى أوروبا ، لأنهم : (١) نقلوا ذلك التراث مشروحا ومعلقا عليه بما يقيله من عثراته ، (٢) أضافوا اليه الشىء الكثير من ابتكاراتهم فى مجالات شتى مثل العلوم الرياضية والفيزياء والفلك وعلوم الحياة والفلسفة .

وفى خلال العصور الوسطى ، وضع رجال الدين فى أوربا فلسفة الاغريق (أفلاطون ـ أرسطو) والمعتقدات المسيحية فوق أية مناقشة ، وبذلك لم يتيحوا للعقل فرصة الانطلاق ، بل عطلوا ملكة التفكير الحر عند الأوربيين وكبلوا عقولهم بالنصوص الفلسفية وعقائد الدين ، وحرموا عليهم البحث الا فى اطار تلك الفلسفة والمعتقدات .

ونحن نسوق مثلا لذلك ما حدث لغاليليو العالم الذى قام بكشوف هائلة فى مجال علم الفلك ، وبصر الناس بآفاق الكون الواسعة عندما صنع المنظار الفلكى المكبر . فلما فرغ من بنائه وجهه الى السماء فرأى بدائع الكون وشاهد روائعه أمام ناظريه. ولقد رصد القمر ووجد أن سطحه به تجاعيد كثيرة ، ولم يكن صادق الاستدارة كما تصوره فلاسفة الاغريق الذين تحدثوا فى فلسفاتهم عن خصائص الكرة . ونظر الى الكواكب كوكبا تلو الكوكب . وفى السابع من يناير عام ١٦١٠ نظر الى المشترى وقال : « ان فى السماء ثلاثة أجرام تسبح حول المشترى كما تسبح عطارد والزهرة حول الشمس . ونظر الى الطريق اللبنى فوجده: (لا يعدو كونه كتلة غير محدودة العدد من النجوم موزعة فى مجموعات) » .

لهذا كله ألقت محاكم التفتيش القبض عليه ، وبقى زمنا طويلا فى معزل عن الناس رهن المحاكمة . وفى ١٥ من يناير عام ١٦٣٣ ــ أى قبل محاكمته بشهور ــ كتب غاليليو الى صديق له يقول:

« لو أننى سألتهم : من صنع الشمس والقمر والأرض والنجوم ونظم حركاتها سيقولون انها من عمل الله . ولكن عندما أضمن سؤالى الاستفهام عن صانع الكتاب المقدس يقولون لى : انه من عمل الروح القدس دون شك ، أى من صنع الله كذلك . وهنا عندما أسأل عما اذا كان الروح القدس يستعمل من الألفاظ ما يناقض به الحقيقة تماما ، من أجل اقناع الجموع غير المثقفة ، فاننى على يقين من أنهم سوف يقولون لى بعد مناقشات عديدة : ان هذه هى ولا ريب عادة الكتاب المقدس ، الذى يحتوى على مئات الفقرات التى عندما تؤخذ حرفيا لا تتمخض الا عن هرطقة وكفر ، اذ فيها يبدو الله ككائن ملىء بالحقد والكراهية ، والاثم مع الغفران . وعند ذلك اذا ما سألت عما اذا كان الله ، لكى يفهمه سواد الناس ، عمد مرة من المرات الى تغيير سننه ،

أو عما اذا كانت الطبيعة ، تلك التى لا تتغير ولا تدركها رغبات البشر ، لا تحتفظ دائما بنفس أنواع الحركة وأشكالها وأقسام الكون .. فانى واثق من أنهم سوف يقولون لى : ان القمر كان وسيظل مستديرا أبد الدهر رغم انه اعتبر مسطحا خلال فترة طويلة من الزمان . ومجمل كل هذا فى عبارة واحدة هو : لن يوافق أحد على أن الطبيعة تغيرت ولو مرة واحدة من أجل أن تجعل سنتها وأعمالها سائغة لذيذة الطعم لدى البشر . واذا كان هذا هو الشأن فانى أتساءل : اذن لماذا يتحتم علينا من أجل فهم أركان العالم المختلفة أن نبدأ بدراسة كلمات الله وتمحيصها دون البحث فى خلقه والتفكير فيه ؟ فهل معنى ذلك أن العمل هو أقل قيمة وتقديرا من (الكلمات) ؟ فاذا كان هناك من يحكمون بكفر ومروق القائل بدوران الأرض وخروجه على الدين ، ثم دلت القرائن والتجارب بعد ذلك على صحة هذا القول فما هى المتاعب التى سوف لا تواجهها الكنيسة ؟؟ أما على العكس من ذلك اذا نحن كلما وجدنا خلافا بين (كلمات الانجيل) و (أعمال الله) ، اعتبرنا الكتاب المقدس فى المرتبة الثانية ، فانه لن يلم به أذى أو يحيق به ضرر ، اذ طالما غير الكتاب وبدل ليلائم سواد البشر ، ولكم من مرة نسب الى الله صفات خاطئة . وعلى ذلك فمن واجبى أن أعرف لماذا نحن نصر على أن الانجيل ، عندما يتحدث عن الشمس أو عن الأرض ، يكون من واجبنا أن نعتبر ما فيه معصوما من الخطأ » .

وفى ٢٢ من يونيو عام ١٦٣٣ وكان قد بلغ التاسعة والستين حضر أمام قاضى المكتب المقدس للكنيسة ، فركع على ركبتيه وراح يعترف قائلا :

« أنا غاليليو غاليلى ، ابن المرحوم فنستريو غاليلى من فلورنسة ، عمرى سبعون سنة ، حضرت بنفسى للمحاكمة ، وهأنذا أركع أمامكم أيها السادة الكاردينالات

الأفذاذ المبجلون ، ممثلو الكنائس العالمية ضد الخروج عليها وعلى تعاليمها . انني أقسم وقد وضعتم أمام نظرى الانجيل المقدس الذى ألمسه بيدى - على أننى كنت دائما أومن، وسوف أظل أومن بعون الله فى المستقبل ، بكل آية تؤمن بها أو تعلمها أو تبشر بها كنيسة روما الكاثوليكية الرسولية . ولكن نظرا لما أتمتع به من شرف المثول بين يدى المكتب المقدس لأطرحن جانبا ولأنبذن بصفة قاطعة فكرتى الخاطئة التى تؤيد كون أن الشمس هى المركز وأنها لا تتحرك ، فقد حرصت أن أعتنق ، أو أدافع ، أو أعلم هذا المبدأ الخاطىء المذكور بأية وسيلة كانت .. وانى أرغب فى أن أزيل من عقول سموكم ، وكذلك من عقل كل مسيحى كاثوليكى هذا الشك المريب الذى وجهت الى تهمته ، ولذلك أعلن أننى أنكر ، بل ألعن وأمقت تلك الأخطاء المذكورة ، وهذه الهرطقة المزرية ، بقلب يغمره الايمان والصدق الذى لا رياء فيه ولا مواربة ولا تضليل ، وكذلك أنكر بصفة عامة كل خطأ آخر أو مذهب لا يتفق مع الكنيسة المقدسة المذكورة . وانى لأقسم بأننى لن أقول مرة أخرى فى المستقبل ، أو أنقل أى شىء شفاها أو كتابة ، تنجم عنه ريبة فى أمرى كهذه . وسوف اذا ما سمعت أى رأى لا يتفق مع الدين ، أو عرفت أى شخص أشك فى عقيدته سوف أخبر به المكتب المقدس أو محكمة التفتيش حيثما كان مكانى . وانى لأقسم أكثر من ذلك ، كما أعد بأننى سوف أراعى تماما حدود توبتى هذه التى يطالبنى بها هذا المكتب المقدس . واذا صادف أن انتهكت حرمتها ، ولم أبر بجانب من وعودى آنفة الذكر ، وقسمى وايمانى ، ولم أنبذ ما حرم الله ، فانى أعرض نفسى لشتى أنواع الآلام وألوان العذاب والعقاب التى أقرتها الكتب الدينية وتحدثت عنها ، وكذلك غيرها من القوانين العامة والخاصة ضد المدنيين المارقين . وانى لأسأل الله العون والمساعدة بفضل كتابه المقدس الذى ألمسه بيدى ، أنا غاليليو غاليلى آنف الذكر ، أقسم جهد ايمانى ، وأعد بأن ألزم نفسى

بما قلت وأمام الشهود الحاضرين أوقع بيدى بالذات على هذا المخطوط الذى أمامكم الخاص بهذا العهد الذى قرأته كلمة كلمة».

ولما حكم عليه بالالحاد لازم مسكنه بفلورنسة حتى مات عام ١٦٤٢ ميلادية وقد فقد بصره وأحنته الحياة .

ملخص نزعات العرب الفكرية ومذاهبهم الفلسفية

على أساس العقل نزلت شرائع السماء فى جزيرة العرب ، ولما كثر البحث عن العقائد بعد انتشار الاسلام ، وتفرع الى موضوعات متباينة ، أخذت تلك البحوث تتركز فى العصر العباسى لتكون فى جملتها (علم الكلام) . وعلى هذا اختص علم الكلام بالبحث فى العقائد الدينية عن طريق رفع الشبهة عنها وتوفير الحجج عليها . وفى هذا المعنى مثلا يقول الغزالى : (ان أهل هذا العلم متمسكون أولا بالأخبار والآيات ، ثم بالدلائل العقلية). ومن كلام العرب : ان الدين ينقسم الى معرفة وطاعة ، والمعرفة هى الأصل ، والطاعة هى الفرع ، وعلى ذلك فان الأصول هى موضوعات علم الكلام ، والفروع هى موضوع علم الفقه . ومن أقوالهم كذلك أن كل ما هو معقول ويتوصل اليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول ، وكل ما هو مظنون ويتوصل اليه بالاجتهاد فهو من الفروع .

ودأب المتكلمون على احلال العقل واكباره ، واعتبروا (علم الكلام) نوعا من العلوم التى لا غنى فيها عن البرهان ، ثم اتخذ العلماء العرب التجربة التى تقوم على الاستقراء وتنظمها القوانين أساسا لهم ، وهكذا خرجوا عن المنطق الاغريقى أو اليونانى القديم الذى قام على القياس بدلا من التجربة .

وهناك جماعة ظهرت فى القرن الرابع للهجرة وتألفت بالعشرة والصداقة يقال لهم (اخوان الصفاء) ، أجمعوا كلمتهم على التآزر

والتعاون والنصيحة الصادقة وعلى الطهارة ، قوام مذهبهم التأمل والبحث والتنقيب عن (الحقيقة) والكمال . وراحوا يدرسون علوم الطبيعة والرياضة ، التى اتخذوها وسيلة للنفع العام المشترك ، ويتعلمون مآثر الاغريق والفرس والهنود ، وأدخلوا عليها العديد من التحويرات التى جعلتها تلائم عقائد الدين الحنيف .

(ورسائل اخوان الصفاء) يعرفها المختصون ، وعددها ٥١ رسالة ، منها ٥٠ فى الحكمة وواحدة جامعة لأنواع المقالات . ومن أقوالهم مثلا : (واعلم يا أخى بأن كل عاقل ذكى القلب اذا نظر بعقله وتفكر برويته فى أحوال الناس ..) . ومن تعاليمهم قولهم لأتباعهم : (.. أن لا يعادوا علما من العلوم وأن لا يهجروا كتابا من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ..) .

وبحثوا فى العقل وقالوا عنه : (ان العقل أشرف الموجودات وأفضلها بعد البارى عز وجل) .

وتحدثوا عن الاخلاص فى العمل واتباع الحق فقالوا : (.. واعلم يا أخى .. بأن المتكبر عن قبول الحق عدو للطاعة ، وقد قيل أن الطاعة هي اسم الله الأعظم الذى به قامت السماوات والأرض بالعدل .. وضد الكبر التواضع للحق والقبول له ..) .

ويتبين للمرء من بين ثنايا بحوثهم أنهم نادوا بوحدة البشر، وطالبوا بالنزول على حكم العقل ، ونصحوا من يسأل عن حقيقة أن لا يستعجل بالجواب ، وعرفوا الكم بالأشياء ذات المقادير ، وهى نوعان : متصل ومنفصل . فالمتصل خمسة أنواع : الخط والسطح والجسم والمكان والزمان . والمنفصل نوعان : العدد والحركة ، أما الكيف فيختص بصفة الشىء ، والصفات كثيرة ومتنوعة .

هذه الميادين فى جملتها مع ما كان يقوم به الفقهاء من نشاط منقطع النظير فى جميع الأحاديث والتثبت منها وحل كل المشاكل الدينية الطارئة ، تبين لنا ميادين الاجتهاد الفكرى والدينى التى كانت قائمة فى عصر صدر الاسلام وما بعده حتى سقوط الدولة العباسية .

وفى أواخر عهود الدولة العباسية ، وبعد سقوط بغداد ، رأى العرب ضرورة قفل باب الاجتهاد ، فتفشى الجمود ، وسيطرت التقاليد ، وكثرت البدع وانتشر الجهل وعمت الخرافات . والحق أن الوقوف عند اجتهاد الأقدمين استهتار بالعقل وتجاهل للنهضات العلمية ، وهو أمر يخالف قول النبى صلى الله عليه وسلم : (اجتهدوا ، فكل ميسر لما خلق له) .

ومن الجماعات التى ظهرت كذلك جماعة المعتزلة ، وهم دعاة عقيدة ومن أعظم المصلحين الدينيين الذين ظهروا فى القرن الثانى للهجرة . جعلوا العقل حكما فى كل شىء ، بمعنى أنه المرجع والأساس . ومن مبادئهم تسليمهم بأن الانسان حر الارادة . ومن أقوالهم : (.. ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ..) .. (.. والرب تعالى منزه أن يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ..) . وهكذا لم يأخذ المعتزلة بنظرية (الجبر) ، ونفوا (القضاء والقدر) بشدة .

ومن أقوالهم كذلك : (ان الله والعالم سائران على قوانين العدل ، ألزم الله بها الانسان والتزم هو بها ..) . والواقع أن القوانين التى التزم بها الخالق لم تقف عند حد الانسان والمجتمع بل شملت الكون بأسره ، كما هو الحال فى القوانين الطبيعية التى لا تتبدل ولا تتغير ، وقوانين الحياة ونواميسها ..

وقد كانت النزعة العلمية هى الغالبة على المعتزلة ، حتى أن

بعضهم قرر اعتناق ديانة عقلية مستنبطة من الفلاسفة والمصلحين وأديان الهنود والفرس .

ومن أئمة المعتزلة النظام الذى عمد الى استخدام التجربة ، بأن سقى الخمر للحيوانات ورصد نتائج عمله . ومن أقواله كما وردت فى كتاب الجاحظ عن الحيوان : (.. انى لم أجد فى جميع الحيوان أملح سكرا من الظبى ، ولولا أنه من الترفه لكان لا يزال عندى الظبى حتى أسكره وأرى طرائف ما يكون منه ..) .

وخالف النظام نظرية التطور المعروفة . وجاء بنظرية لها من يدافعون عنها ، فنجده يقول :

ان الله خلق الناس والحيوانات والنباتات وسائر الموجودات دفعة واحدة وفى وقت واحد ، وأكمن بعضها فى بعض ، فالتقدم والتأخر انما يقع فى ظهورها من مكانها لا فى خلقها .

والجاحظ من علماء المعتزلة . وهو أعظم رجل أخرجته مدرسة النظام . ونجده يقول فى مقدمة كتاب الحيوان : (.. جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا ، وحبب اليك التثبت ، وزين فى عينيك الانصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ..) . وفى سبيل الحقيقة استخدم حواسه كآلات للرصد والتتبع . آمن بأن العلم مشاع لا تحتكره أمة دون أخرى ، فقد ورد فى مقدمة كتاب الحيوان كذلك قوله : (.. وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم ..).

أما فى ميادين العلم فقد كانت الكيمياء توجه عند بعض المشتغلين بها الى بحوث تحيل المعادن الى ذهب أو فضة .

وفى الفلك رصدوا الكواكب والنجوم واشتغلوا بالتنجيم .

وفى الطبيعة درسوا البصريات كما فعل الكندى وابن الهيثم ، كما اشتغلوا بالحساب ووضعوا أسس علم الجبر واللوغاريتمات والهندسة وعلوم الحياة .

وفى نظر ابن سيناء يقترب الانسان من الكمال المنشـــود اذا ما اتســـعت معرفته بالكون وأدرك حقائق العالم ، ويتم ذلك عن طريق الارادة والعقل .

الاسلام كقوة دافعة للأمة العربية

ذهب بعض الفرنجة فى مؤلفاتهم الى أن أهم أسباب تخلف العرب فى مجـــال العلوم بعد نهضتهم الدينية الكبرى انتشار الخرافات وأحاجى شهرزاد .. وألف ليلة وليلة .. فاقتصرت أغلب أعمالهم وتطبيقاتهم فى مجالات الفيزياء والكيمياء والفلك على متابعة تلك الأحـــلام الوهمية والآمال الخرافية والتمنيات الخيالية التى تناولت موضوعات سيطرة (الملائكة) على كل ظاهرة، كظاهرة المد والجزر ، والبحث عن الوسائل التى بها تحـــول المعادن المألوفة الى ذهب ثمين (الكيمياء الخرافية أو آلكمى) ، وكذلك الى حد ما موضوعات التكهن بمستقبل أى فرد على أساس أشكال تجمعات أجرام السماء أمام الراصـــد يوم الميـــلاد (التنجيم) .

والحق أن الأمـــة العربية هى التى رفعت لواء العلم طوال القرون المظلمة والعصـــور الوسطى ، وكانت فى مركز قيادى ، فنهلت من علوم الاغريق والهند ، وأضافت اليها . ومن العبث أن نتصور أمة تنقل علوم الأمم الأخرى الا أن تكون قد بلغت من التقدم الحضارى والعلمى ما يؤهلها لهضم العلوم التى تنقلها . وعندما نقل العرب علوم من سبقهم لم يكونوا مجرد قنطرة عبرت عليها الحضارات القديمة لتصـــل الى عصر النهضة العلمية فى أوروبا ، وانما أضافوا اليها الشىء الكثير . ولا يعرف التاريخ

أمة اهتمت بالعلم كالأمة العربية فى عصورها الزاهرة الزاخرة بالعلم والأدب ، حتى لقد كانت الحركات العلمية والثقافية جزءا من حياتنا لا يتجزأ .

وغدت العواصم العربية : القاهرة ، دمشق ، بغداد ، وقرطبة .. مراكز اشعاع للعلم والعرفان ، واحتل العلماء درجات مرموقة لدى الخلفاء والأمراء والحكام الذين لم يبخلوا على العلم. وقد كانت أعظم هوايات الأمراء والأثرياء وكان ميدان التفاخر بينهم هو جمع المخطوطات والحرص على اقتناء النفيس من المؤلفات .

ولعل خير ما تضرب به المثل فى هذا السبيل الخليفة العباسى المأمون ، الذى عمد الى توثيق علاقاته بملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الثمينة ، وطلب اليهم أن يمدوه بما كان فى حوزتهم من كتب الاغريق ، فبعثوا اليه بما توفر لديهم من مؤلفات أفلاطون ، وارسطو ، وسقراط ، وجالينوس ، واقليدس وأرشميدس ، وبطليموس وغيرهم .. ولقد أمر بترجمة كتاب بطليموس فى الفلك وأطلق عليه اسم (المجسطى) . وفى عام ٢١٥ هـ (٨٢٠ م) أنشأ المأمون فى بغداد (بيت الحكمة) وأمده بمكتبة جمع فيها آلاف المخطوطات من تأليف العرب فى شتى العلوم والفنون وما ترجموه عن الحضارات القديمة . وانشاء (بيت الحكمة) كان ايذانا بانتقال العلم من الرواية الى التأليف ، ومن الجدل والكلام الى البحث والقياس والتثبت .

وهكذا نرى اذن أن العرب نقلوا حضارة الاغريق عن طريق الترجمة وتشجيعها أيام العباسيين . أما الهند فقد عرف العرب عنها الشىء الكثير قبل ظهور الاسلام ، وذلك عن طريق التبادل التجارى والمدارس العلمية الساسانية بأرض الرافدين وأساتذتها من حكماء الهند واليونان . ثم كانت للفتوح الاسلامية فى الهند بطبيعة الحال آثارها فى مختلف فنون المعرفة ، حتى ذهب بعضهم

الى حد القول بأن العرب فى فجر نهضتهم كانوا مدينين للهند قبل الاغريق فيما نقلوه من ألوان الثقافة الجديدة وقد كان للأمويين فضل الوصول الى مشارف الهند فى مجال فتوحهم .

وثمة ناحية أخرى عملت على رفع قدر العلم عند العرب هى تعاليم القرآن الكريم ، فهو قبل كل شىء أشاد بمكانة العلم والعلماء حين قال مثلا فى سورة العنكبوت : (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) ، ثم فرق بين الظن واليقين حين قال مثلا فى سورة (الأنعام) : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن » ، وفى سورة (آل عمران) : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » . ومهما يكن من شىء فان التفرقة بين الظن واليقين أو الوهم والحقيقة هى الأساس القويم الذى بنى عليه صرح العلم الحديث ، وذلك اما عن طريق البرهان النظرى السليم ــ كما فى علوم الرياضة ــ ، أو بالتجربة العملية المتقنة ــ كما فى علوم الطبيعة والكيمياء والطب والحياة ــ . والحق يقال : عندما أخذت شعوب أوروبا بهذا المبدأ استطاعت التقدم بخطى واسعة وسريعة بدرجات ومعدلات لم يعهدها الانسان من قبل .

والى جانب هذا كله يخاطب القرآن الكريم ذوى العقول الراجحة ، ويوجه الحديث الى أهل الخبرة والمعرفة ، اذ يقول مثلا :

فى سورة آل عمران : (ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) . وفى سورة الجاثية : (ان فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) .

وهكذا يفصل كتاب الله فى مراحل الوحى المختلفة المقصود بالعلم ، وما انقسم اليه فى عصرنا هـذا من فروع وتخصصات مثل الفلك والفيزياء والكيمياء والأرصاد والنبات والحيوان ، وطبقات الأرض ونحوها ، تلك العلوم الأساسية التى بازدهارها تزداد الشعوب درجات فى البأس والقوة ، ودرجات فى الايمان والتقرب من الله وخشيته تعالى :

(انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) ــ سورة فاطر ــ .

وبتلك الدفعة الكبرى ألف العرب الموسوعات الشاملة فى مختلف فروع العلم والمعرفة : فكتب ابن سينا نحو ٢٩٦ كتابا فى علوم الطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة والفيزياء والنبات والحيوان الخ .. وألف ابن الهيثم نحو ٢٠٠ كتاب ، منها كتابه البصريات الذى لقى رواجا بعد تحقيقه فى عصرنا هذا . وصنف البيرونى نحو ١٧٦ مخطوطا على مستوى رفيع ، منها ما عالج فيه العديد من المسائل الرياضية والفلكية الحديثة ؛ وألف الجاحظ ما يربو على ٣٥٠ كتابا ورسالة فى الأدب والشعر مما تفخر به المكتبة العربية .

والمعروف أن ابن الهيثم هو من أوائل من نادوا بالمبدأ القائل بأن الأساس فى العلوم هو (التجربة والاعتبار) ، وقد نقل عنه هذه الحقيقة فرنسيس بيكون الذى أدخل هذا المبدأ فى العالم الغربى . ويقول (بلتون) : « ان العرب كانوا يعرفون ثقل الهواء ، ولهم وسائل متقنة وموازين دقيقة لاستخراج الوزن النوعى لأكثر السوائل والجوامد التى تذوب فى الماء . ولهم فى ذلك جداول على النحو المستعمل الآن » .

ولقد ظلت كتب هؤلاء العلماء العرب تدرس فى جامعات أوروبا حتى عصر النهضة فى القرن السابع عشر ، وكانت تلك

الكتب تترجم وتطبـــع لتكون المراجع التى يعتمـــد عليها . وما أحوجنا اليوم الى اظهار مؤلف يجمع شتات تلك المعلومات التى توصل اليها علماء العـــرب رواد علوم الطبيعة والجبر والكيمياء والحيوان والطب والصـــيدلة والزراعة ، لكى يظهر للعالم ما نفاخر به الأمم وما نحفز به شبابنا على العمل المثمر من أجل محاولة استعادة أمجادهم .

ابتـــدع جابر بن حيان علم الجبر ، واستخدم الخوارزمى اللوغاريتم وظل الأوربيون يعرفون اللوغاريتم باسم (الجورتمى)، أى الخوارزمى ، وهو أول من حل معادلات الدرجة الثانية فى علم الجبر . ويدعى الغربيون أن فلسفة ديكارت ورياضياته وهندسته كانت نقطة انتقال الفكر الأوربى من محاكاة الاغريق الى مرحلة الأصالة والانطـــلاق ، ولكنهم نسوا فضل العرب على ديكارت ومدى تأثير علومهم على أفكاره وآرائه . ولا ينكر أحد استخدام علماء الفلك فى أوروبا قبل عهد غاليليو لأجهزة العـــرب وآلاتهم الفلكية .

وفى مجال الرياضة والحساب وضع العرب أساس الكسر العشرى ، واستخدموا الصفر على يد جمشيد . وتعتبر هذه الأعمال أهم خطوة تمت فى سبيل ارتقاء علوم الحساب .

والعجيب أن القرآن الكريم يأخذ بالحساب العشرى ، وذلك فى العديد من الآيات التى تستخدم فيها العدد ، مثل قوله تعالى على سبيل المثال :

١ ــ فى سورة هود : « أم يقـولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » .

٢ ــ فى ســورة الأنعام : « من جاء بالحســنة فله عشر أمثالها » .

٣ ـ فى سورة الأنفال : « فان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » .

٤ ـ فى سورة الحج : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

٥ ـ فى سورة القدر : « ليلة القدر خير من ألف شهر » .

٦ ـ فى سورة سبأ : « وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم » .

مميزات التراث العلمى العربى

عندما نستعرض أعمال علماء العرب من أمثال : يعقوب الكندى ، وأبى بكر الرازى ، وأبى الحسن المسعودى ، وأبى على الحسن بن عبدالله بن سينا ، وأبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى ، والحسن بن الهيثم ، وزكريا بن محمد القزوينى ، والشريف الادريسى وغيرهم كثير فى مختلف فروع العلم ، نجد أن الكندى مثلا لا يؤمن بالتنجيم وتأثير الكواكب على الناس ، كما أنكر امكان تحويل المعادن الى ذهب وفضة ، وألف رسالة أطلق عليها اسم (رسالة فى بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم) .

واتبع أبو بكر الرازى طريقا علمية ، وتميزت بذلك بحوثه فى الكيمياء ، وألف (كتاب سر الأسرار) الذى ضمنه وصف تجاربه والخطوات التى كان يتبعها فى تحضير مختلف المركبات، ودقائق الأجهزة .

وابن سينا ممن أنكروا امكان تحويل العناصر الى ذهب أو فضة ، لأن كلا منها له تركيبه الخاص ولا يمكن أن يغير بطرق التحويل المعروفة .

وتميـــز البيرونى بكونه من الباحثين العلميين المدققين الذين تلمسوا الحقيقة بعيدا عن التعصب المضـلل أو الوهم . مثل خبر تمثيل رغبة عصره فى الجرأة فى الرأى والنقد . انتقد منهج الهنود لكونه غير علمى ، واتخذ لنفسه نبراسا علميا يتميز بالملاحظة الدقيقة والتجربة . أكثر أعماله العلمية فى مجـــالات الفلك والهيدروستاتيكا والأوزان النوعية ، خصــــوصا للأحجار الكريمة ، وله شروح وتطبيقات لبعض الظواهر التى تتعلق باتزان الســـوائل وضغوطها مثل صـــعود ماء النافورات الى أعلى (الهيدروستاتيكا) ، ومن أهم أعماله فى الفلك أنه ابتكر نظرية خاصة لقياس محيط الأرض ومن ثم تعيين نصف قطرها .

والبيرونى من أوائل العاملين على تقريب قضايا الفلك من اشارات القرآن الكريم وتوجيهاته ، عن طريق التعليق العلمى واستخدام الحكمة .

وكلمة بيرون أصـــلها فارسى ومعناها بالعـــربية ظاهر أو خارج . وقد ولد البيرونى بظاهر مدينة (خوارزم) باقليم خوارزم . وهناك قول مشابه بأنه سمى البـــيرونى بلغة أهل خوارزم لأنهم كانوا يطلقـــون على الغريب عنهم اسم (بيرونى) وكانت اقامة الرجل فى خوارزم قليلة ، يمر عايها وهو على سفر فيحط بهـــا رحاله . أما القـــول بأن الاسم هو نسبة الى بلدة (بيرون) فى بلاد الهنـــد فهو لا يستند الى دليل اذ أن الرجل انما بدأ حياته فى خوارزم .

وفى ضوء هذه النبذة الموجزة عن بعض علماء العرب نستطيع أن نلخص مميزات التراث العلمى العربى فى النقاط الآتية :

١ ــ طغيان اللغة على أعمال العلميين العرب ، فقد جمعوا بين العلم والأدب ، وكانت البلاغة والفصاحة رائدهم الأدبى ، والدقة وتحرى الحقيقة رائدهم العامى .

٢ ـ تمجيد العقل مع اعتباره الدليل والحكم .

٣ ـ الايمان بالتحرر العقلى ، اذ كانوا يؤمنون بصدق أن الحقائق لا سبيل الى الوصول اليها الا عن طريق البحث الحر المختار .

٤ ـ وضع دستور البحث العلمى بالرصد أو المشاهدة والتجربة أو القياس والاستقراء الذى أخذ به فريق العلميين .

٥ ـ تحرى الحقيقة ، والاخلاص للحق ، وتلمس الصواب خصوصا فى نقل الأحاديث والأخبار .

٦ ـ لم يخل التراث العلمى العربى من الحشو والاستسلام للخيال ، كما فعلوا مثلا فى وصف عروس البحر ، والتنين الطائر ، وتفسير المد والجزر .

٧ ـ المحافظة على تراث من سبقهم من اليونان والهند وتطوير هذا التراث وتخليصه من الشوائب .

ومن أوائل من نادوا بالاستقراء والقياس ابن الهيثم ، ويقول البعض أنه رائد فى ادراك الوضع الصحيح للنظرية العلمية ، وفهم وظيفتها . وقد اعتمد على التجربة فى اثبات القوانين الأساسية فى علم الضوء ، وكذلك فى اثبات النتائج التى استنبطها بالقياس بعد ذلك من تلك القوانين . وقد شرح الأجهزة العلمية وبين وظائف أجزائها المختلفة ، واستعمل أجهزة ابتكرها لشرح انعكاس الضوء مثلا .

٨ ـ يتميز التراث العلمى العربى كذلك باتساع النطاق . اذ تناول كل ميادين المعرفة من العلوم الانسانية الى العلوم الرياضية والفلك والكيمياء وعلوم الحياة الى الفلسفة والدين والموسيقى .

ومن المسلم به حتى عند الغربيين أنه لولا انقاذ العرب لتراث الفكر الاغريقى ابان العصور المظلمة ونقلهم الكثير عن حضارة الهند وتخليصها من الشوائب ، ولولا تسامحهم الدينى وتمجيدهم للعقل ومناداتهم بحرية الفكر لتأخرت النهضة العلمية الحديثة أجيالا كاملة .

وتلك الروح التى تميز بها التراث العلمى العربى هى التى تنير لنا الطريق اليوم ، ويجب أن نتخذها نبراسا لحل مشاكلنا ، فلقد كان العرب أحرارا عندما آمنوا بحرية الفكر وأدى كل فرد واجبه كاملا ، ولم يدخر وسعا فى الوقوف الى جانب الحق على الاطلاق .

والأدب فى أية أمة انما يتأثر بأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ويتطور لخدمة الأمة . ولقد انتقلت أمثال العرب الفكرية والأخلاقية وروائع حكمهم الأدبية من أسبانيا الى أوروبا وتغلغلت فى جنوب فرنسا وشمال ايطاليا ، وبانتشار مؤلفات (المتكلمين) فى غرب أوروبا اشتعلت شرارة الثورة الفكرية حتى استطاعت أن تحقق فصل العلم عن الدين الذى مكن العلم فى أوروبا من السير قدما ليصل الى ما وصل اليه اليوم . ولا نجد لتلك المعركة التى قامت بين العلم والدين فى أوروبا أى نظير مماثل عند العرب ، بل العكس صحيح ، فقد حث الاسلام على العلم والتعليم والتفكير فى أرجاء الكون المختلفة وأعلى قيمة العلماء .

أسلوب العرب فى كتابة التراجم

لم يهتم العرب فى بادىء أمرهم بتدوين المعلومات على تفاصيل نشأة الأديب أو العالم وأخبار طفولته ، مما حمل الباحثين فى عصرنا هذا على مجرد الاعتماد على الآثار التى تركها أولئك الرواد فى العلم والأدب فى استنباط ما تتطلبه المناهج الحديثة فى كتابة التراجم . ولكن التراث العربى القديم يمدنا

بصور واضحة عن مـــدى اتصال العلماء برجال عصرهم من الفلاسفة والحكماء والأمراء والحكام . وتكشف لنا تلك الصور الاتجاهات والجوانب الهامة فى كل عصر من العصور التى نشأ فيها أولئك العلماء . وفى هذا المعنى يقول (جوستاف جرونيباوم) فى كتابه (حضارة الاسلام) عن تلك التراجم :

(يقتصر الكثير منها على سرد التواريخ الهامة ، كالميـــلاد والوفاة ، والدراسة ، والتعيين فى الوظائف العامة . فأما الشخصية الكامنة وراء الحوادث فتظل ملفقة غير واضحة) .

أهم علماء القرن الحادى عشر الميلادى ، أو عصر البيرونى

تميز هـــذا العصر كما قلنا بوفرة وغزارة الانتاج العلمى والأدبى رغم التدهور الســـياسى . ولعل السبب فى ذلك يرجع أولا وقبل كل شىء الى تشجيع حكام الأقاليم الطامعين فى الانسلاخ عن بغداد ، واغداق العطاء على العلمـــاء الذين استعانوا بهم فى تطبيق البرامج الحربية التى رسموها من أجل الغزو والتوسع. فمنذ القرن الرابع الهجرى كان الوهن قد دب الى صرح الخلافة الاسلامية فى بغداد ، ولم يعد للخليفة من سلطان حقيقى ، وتغلب العنصر التركى على الخلفاء الذين اضطروا صاغرين الى تفويض الأتراك والفرس فى حكم بعض الولايات النائية . وعمد فريق من أولئك المفوضين الى البقاء فى بغداد مع تفويض غيرهم ممن يثقون بهم فى حكم تلك الولايات النائية نيابة عنهم ، كما شجعوا نشر ثقافات الهند .

وعاش فى عصر البيرونى ابن يونس المصرى ، وهو على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى من فحول علماء القرن الحادى عشر للميلاد . ولد فى مصر وتوفى بها عام ، ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م . وهو الذى اخترع رقاص الساعة

أو البندول ، وكان أول من استعمله لقياس الزمن ، وسبق بذلك غاليليو بعدة قرون .

وفى ذلك العصر أيضـــا عاش الحسن بن الحسن بن الهيثم المهندس البصرى ، وعالم البصريات المرموق . ظهر فى مصر فى أوائل القرن الخامس الهجرى وتوفى عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) .

وعاصر البـــيرونى كذلك وكان له معه شأن يذكر ابو على الحسن بن عبدالله بن ســـينا الملقب بالشيخ الرئيس . سمته الفرنجـــة (أفسين) ولد فى (خرميشن) من ضياع بخـــارى عام ٣٧١ هـ (٩٨٠ م) ، وتوفى فى (همـــذان) عام ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) .

وابن سينا عبقرى فذ ، اشتغل بالفلسفة والطب والمنطق والرياضـــة والفلك والفيزياء والموسيقى . قرأ كتب هندســـة اقليدس وكتاب المجسطى وكتب أرسطو ثم رغب فى علم الطب ، ونجح فى معالجة الأمراء . ومن مؤلفاته فى الطب (كتاب القانون). وقد جعل للتجربة المكان الأول . حارب التنجيم .

ويعتبر ابن سينا منظم الفلسفة فى الاسلام . وقد بقيت كتبه فى الطب والفلسفة تدرس فى أوروبا حتى القـــرن السابع عشر الميلادى . ونجده قد كتب عن الزمان والمكان ، والحيز ، والقوة ، والفراغ ، والنهاية ، واللانهاية ، والحرارة والنور . وتحـــدث عن الحركة .

وفى رأيه أن سرعة الضوء محدودة ، وأن شعاع الضـــوء يأتى من الجسم المرئى الى العين ، فهل نقل عنه مشاهير علماء الغرب فى عصر النهضة من أمثال نيوتن ؟

الفصل الثانى

ترجمة حياة البيرونى

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى ذى الحجة سنة ٣٦٢ هجرية ، الموافق الرابع من سبتمبر ٩٧٣ ميلادية ، فى احدى ضواحى عاصمة الدولة الخوارزمية ، وهى مدينة كاث التى توجد مكانها حاليا بلدة صغيرة تابعة لجمهورية أزبكستان بالاتحاد السوفييتى .

وقد أشار ابن أبى أصيبعة فى (عيون الأنباء) أن لقب البيرونى يرجع الى بيرون فى السند ، بينما ذكر السمعانى فى الانساب أن التجار كانوا يقطنون خارج أسوار العاصمة تخلصا من دفع المكوس على البضائع الداخلة اليها ، وكان يطلق على من يعيش خارج البلدة اسم بيرونى بالفارسية .

وتخليدا لذكرى هذا العالم الجليل ، الذى احتل مركز الصدارة مع لفيف من علماء العرب فى عصر النهضة ، أطلقت حكومة جمهورية ازبكستان السوفييتية على هذه المدينة اسم مدينة البيرونى ، وهى تقع على شاطىء نهر آموداريا ـ وهو نهر

جيحون القديم ـ على مسافة ٢٠٠ كيلو متر تقريبا جنوبى بحيرة آرال .

كان البيرونى كما ذكرنا من أصل خوارزمى ، ولكنه الى جانب معرفته للغة الخوارزمية أجاد فى شبابه اللغتين العربية والفارسية ، ثم أضاف اليهما فيما بعد اللغات السنسكريتية واليونانية والسريانية ، وكان ذلك خير عون له فى دراساته العلمية ، اذ أتاح له الاطلاع على مراجع تلك الثقافات المختلفة دون أن يعتمد كلية على ما ترجم منها ، بما فيها من أخطاء محتملة وقع فيها المترجمون وخاصة غير المتخصصين منهم فى النواحى التى كلفوا بترجمتها .

نبغ أبو الريحان فى الرياضة والفلك ، ويعتبر جغرافيا ومؤرخا ولغويا وفيلسوفا ، كما كتب رسائل فى بعض النواحى العلمية الأخرى كالاقتصاد والنبات ، حتى أنه أطلق عليه لقب الأستاذ. وقد بقى فى موطنه حتى بلغ الثالثة والعشرين ، حيث عمل فى بادىء الأمر كمساعد لأحد علماء النباتات يجمع له الكثير منها ومن بذورها ، فغرس ذلك فى نفسه حب الاستطلاع والتقصى وطلب العلم . ولعل حب الاستطلاع عنده جعله ينتقل من دراسة العلوم الدانية الى دراسة الأسرار النائية التى تتمثل فى الأجرام السماوية ، فتدرب عمليا على يد أستاذه أبى نصر منصور ين على ابن عراق كما اتصل بابن سينا ، ونشر فى تلك الفترة أوائل مؤلفاته .

ولم يقتصر البيرونى آنئذ على الحياة العلمية ، بل اشترك أيضا فى الحياة السياسية فى خوارزم وانضم الى أنصار خوارزم شاه أبى العباس . وفى عام ٣٨٥ هجرية ، اغتيل أبو العباس نتيجة لنضاله ضد العائلة الملكية الجديدة التى كان يرأسها مأمون بن محمد ، فاضطر البيرونى الى الهجرة خارج حدود وطنه الى

جرجان فى الجنوب الشرقى لبحر قزوين ، حيث التحق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس بن وشمجير شمس المعالى وهناك نشر أول مؤلفاته الكبرى عن التقاويم والتواريخ ومسائل فى الفلك والرياضة وهو « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذى قام بتحقيقه المستشرق السوفييتى ميكائيل رسيلة المتوفى عام ١٩٦١ م .

وبعد تغير الحالة السياسية فى خوارزم ، عاد البيرونى الى وطنه فى حوالى سنة ٤٠٠ هجرية بعد أن قضى خارجه حوالى خمسة عشر عاما ، فاستقبله الأمير أبو الحسن على بن مأمون أحسن استقبال وألحقه بحاشية أخيه أبى العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه ، الذى عهد اليه ببعض المهام السياسية بسبب طلاقة لسانه وقدرته على الاقناع .

أقام البيرونى فى الفترة ما بين ٤٠٠ ، ٤٠٨ هجرية فى عاصمة خوارزم الجديدة ، وهى مدينة الجرجانية (حاليا أورغنج) ، وكان الى جانب منصبه السياسى فى البلاط ، من أكبر العلماء اختراعا وتقديرا فى خوارزم .. ولعب دورا كبيرا فى مجلس العلوم فى الجرجانية كما استمر فى أبحاثه العلمية وخاصة الفلكية منها ، وان كان انتاجه العلمى قد انخفض الى حد ما نتيجة للأعباء السياسية الموكولة اليه .

وفى عام ٤٠٧ هجرية (١٠١٧ م) غزا السلطان الغزنوى محمود بن سبستكين خوارزم واحتلها ، ثم أخذ البيرونى وطائفة من العلماء أسرى الى مدينة غزنة عاصمة الدولة الغزنوية الجديدة ، وتقع هذه المدينة الآن فى منطقة داخل حدود أفغانستان . وهناك حدثت اقامة هؤلاء العلماء وقيدت حرياتهم حتى مات السلطان محمود وخلفه ابنه مسعود الغزنوى ، فقرب أبا الريحان اليه للاستفادة بعلمه ثم ألحقه بالبلاط وأحاطه بالرعاية والتقدير ، حتى انه عندما كتب موسوعته النفيسة فى

علم الفلك «القانون المسعودى فى الحياة والنجوم» أهداه مسعود حمل فيل من القطع الفضية مكافأة له على هذا العمل ، ولكن البيرونى رفض الهدية لأنه كان يعمل حبا فى العلم ذاته .

وعندما بدأ السلطان مسعود غزواته لشمال غربى الهند ، اصطحب البيرونى معه حيث قام بنشر علوم الحضارة الاغريقية، وفى نفس الوقت درس العلوم الهندية ونشر ذلك فى ثانى مؤلفاته الكبرى «طريق الهند» عام ٤٢١ هجرية (١٠٣٠ م) بعد عودته الى غزنة ، كما كتب مؤلفين رئيسيين آخرين هما « القانون المسعودى فى الحياة والنجوم » الذى أشرنا اليه ، و « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » .

وهكذا أصبحت غزنة مقرا دائما للبيرونى حتى مماته فيها . أما تاريخ وفاته فهو موضع مناقشة ، اذ يرى بعض المؤرخين أنه فى ٣ رجب سنة ٤٤٠ هجرية (١٣ ديسمبر ١٠٤٨ م) بينما يعتقد آخرون أنه كان حيا يرزق عام ٤٤١ هـ (١٠٥٠ م)

كان البيرونى حقا يخدم العلم للعلم لا للمال كما ذكرنا ، ولم يكف لحظة عن التفكير فى المسائل العلمية حتى وهو على فراش الموت . اذ يروى ياقوت عن النيسابورى أن قاضيا من أصحاب البيرونى قال :

« دخلت على أبى الريحان وهو يجود بنفسه وقد حشرج نفسه وضاق به صدره ، فقال لى فى تلك الحال : كيف قلت لى يوما حساب الجدات الفاسدة ؟ فقلت له اشفاقا عليه : أفى تلك الحالة ؟ قال لى : يا هذا ، أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟ فأعدت ذلك عليه ، وحفظه ، وعلمنى ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا فى الطريق فسمعت الصراخ » .

أهم مؤلفاته

خلف البيرونى عددا كبيرا من المؤلفات يصل الى مائة وثمانين كتابا ، نشر هو بنفسه فهرسا بأسماء مائة وثلاثة منها وذلك فى مؤلفه « رسالة فى فهرس كتب محمد بن زكريا الرازى » الذى نشره ماكس كراوزه ، عام ١٩٣٦ ، بالاضافة الى مؤلفاته اللاحقة التى أتمها بعد أن كتب فهرسه ، ونشر بعضها وهو على قيد الحياة ، والبعض الآخر نشره بعد وفاته عدد من العلماء منهم أبو نصر منصور بن على بن عراق ، وأبو سهل عيسى بن يحيى المسيحى ، وأبو على الحسن بن على الجبلى . وقد ضاع الكثير من هذه المؤلفات والباقى موزع فى مكتبات العالم . وتبذل دائرة المعارف العثمانية فى الهند مجهودات ضخمة فى سبيل احياء هذا التراث النفيس حتى لا يندثر ما بقى منه ، هذا كما بدأ بعض علماء العرب فى العصر الحديث فى تحقيق ما يحتويه من نظريات وآراء بعد أن كان الأمر قاصرا تقريبا على المستشرقين الأجانب .

واننا لنجد بين مؤلفات البيرونى ، الكتب المستفيضة التى تتناول بالشرح والتعليق كل صغيرة وكبيرة فيما يكتب عنه مع مناقشة آراء وأرصاد السابقين والمعاصرين له . كما نجد كتبا مختصرة تركز على ذكر القواعد والنظريات دون برهان أو مناقشة، الى جانب رسائل قصيرة تتناول ناحية من النواحى العلمية . وتبلغ بعض هذه من القيمة العلمية الحد الذى حمل الغربيين على نقلها الى لغاتهم الفرنسية والانجليزية والألمانية والروسية . ويبين لنا الرجل فى هذه المؤلفات خطوات تقدم العلوم عند العرب ويذكر الطرق التى بها انتقلت اليهم علوم الهند واليونان ، ونجده كما قلنا يحدثنا بنفسه عن مؤلفاته فى رسالته المعروفة باسم (الفهرس) .

ومهما يكن من شىء فان المصادر المختلفة لمؤلفات البيرونى لا تتفق تماما فى أسماء بعض الكتب ، ولكن هذا الخلاف لا نجد

له كيانا عندما يكون مرجعنا ما أحصاه البيرونى بنفسه فى (الفهرس) .

ومن أشهر مؤلفات البيرونى العلمية (١) .

١ ـ كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية .

٢ ـ كتاب تاريخ الهند .

٣ ـ كتاب الهند الكبير ، أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة .

٤ ـ كتاب تقاليد علم الهيئة وما يحدث فى بسطة الكرة .

٥ ـ كتاب القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم .

٦ ـ كتاب استيعاب الوجوه الممكنة فى صفة الاسطرلاب .

٧ ـ كتاب الوساطة بين أبى الحسن الأهوازى والخوارزمى.

٨ ـ كتاب جوامع الموجود لخواطر الهنود فى حساب التنجيم ، أتم منه ٥٥٠ ورقة .

٩ ـ كتاب أطوال البلاد وعروضها .

١٠ ـ الآلات والعمل .

١١ ـ الشعاعات والقمر .

١٢ ـ الحساب .

١٣ ـ الأزمنة والأوقات .

١٤ ـ المذنبات والذوائب .

١٥ ـ كتاب تحقيق منازل القمر .

١٦ ـ عشر مقالات فى خواص المعادن والهندسة والطبيعة والفلك .

---

(١) (أنظر « تراث العرب العلمى » تأليف قدرى حافظ طوقان :

١٧ ـ التنجيم .
١٨ ـ كتاب دوائر السماوات فى الاسطرلاب .
١٩ ـ كتاب منازعة مجال الاسطرلاب .
٢٠ ـ كتاب اصلاح شكل منالاوس .
٢١ ـ كتاب مواقع السمت .
٢٢ ـ كتاب مسائل المسائل الهندسية .
٢٣ ـ كتاب كرية السماء .
٢٤ ـ كتاب القسى الفلكية .
٢٥ ـ كتاب الارشاد فى أحكام النجوم .
٢٦ ـ كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر .
٢٧ ـ كتاب تكميل زيج «حبش» بالعلل وتهذيب أعماله فى الزلل .
٢٨ ـ كتاب اختلاف الأقاويل لاستخراج التحاويل .
٢٩ ـ كتاب مفتاح الهيئة .
٣٠ ـ مقالة فى نقل ضواحى الشكل القطاع الى ما يغنى عنه.
٣١ ـ كتاب فى تهذيب الأقوال فى تصحيح العرض والأطوال .
٣٢ ـ مقالة فى تعيين البلد من العرض والطول كلاهما .
٣٣ ـ كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن .
٣٤ ـ كتاب تهذيب فصول الفرغانى .
٣٥ ـ مقالة فى اختلاف ذوى الفضل فى استخراج العرض والميل .

٣٦ ـ مقالة فى تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض .

٣٧ ـ كتاب ايضاح الأدلة على كيفية سمت القبلة .

٣٨ ـ مقالة فى استخراج قدر الأرض برصد انحطاط الأفق عن قلل الجبال .

٣٩ ـ مقالة فى تصفح كلام « أبى سهل الكوهى » فى الكواكب المنقضة .

٤٠ ـ كتاب تكميل صناعة التسطيح .

٤١ ـ كتاب تصور أمر الفجر والشفق فى جهـة الشرق والغرب من الأفق .

٤٢ ـ مقالة فى استخراج الكعاب والاضطلاع بما وراءه من مراتب الحساب .

٤٣ ـ كتاب جدول الدقائق .

٤٤ ـ كتاب امتحان الشمس .

٤٥ ـ كتاب رؤية الأهلة .

٤٦ ـ كتاب التفهم لأوائل صناعة التنجيم ، وقد مر الكلام عليـه .

٤٧ ـ كتاب جدول التقويم .

٤٨ ـ كتاب العمل بالاسطرلاب .

٤٩ ـ كتاب جمع الطرق السائرة فى معرفة أوتار الدائرة .

٥٠ ـ كتاب أفراد المقال فى أمر الظلال .

٥١ ـ كتاب استخراج الأوتار فى الدائرة بخواص المنحنى فيها ، وهو مسائل هندسية أدخل فيها .

٥٢ ـ طريقته التى ابتكرها فى حل بعض الأعمال .

٥٣ ـ مقالة فى التحليل والتقطيع للتعديل .

٥٤ ـ تمهيد المستقر لتحقيق معنى المر .

٥٥ ـ كتاب التطبيق الى تحقيق حركة الشمس .

٥٦ ـ كتاب جلاء الأزهار فى زيج البتانى .

٥٧ ـ كتاب فى تحقيق منازل القمر .

٥٨ ـ كتاب كيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب .

٥٩ ـ كتاب ترجمة ما فى براهين سدهانة من طرق الحساب .

٦٠ ـ كتاب الصيدلة فى الطب ، « استقصى فيه معرفة تراكيب الأدوية ، ومعرفة أسمائها ، واختلاف آراء المتقدمين فيها ، وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه . وقد رتبه على حروف المعجم » .

٦١ ـ كتاب استشهاد باختلاف الارصاد ، وقد كتبه « البيرونى » لأن أهل الرصد عجزوا عن ضبط أجزاء الدائرة العظمى بأجزاء الدائرة الصغرى .

وفى واقع الأمر ليس هذا مجال البحث فى حصر كل ما كتب أو مناقشة كل ما احتوته مؤلفات البيرونى أو عرض نظرياته باستفاضة ، بل أن المجال لا يتسع لتغطية أشهر مؤلفاته ، فكل منها دائرة معارف شاملة . ولكننا سنبرز بعض آرائه الفلسفية والعلمية التى تجلت فى تلك المخطوطات ، بالاضافة الى أهم نظرياته أو أعماله النظرية والعلمية .

أسلوبه الكتابى

ان السنين الطويلة التى قضاها البيرونى فى الهند (زهاء أربعين سنة) ، ينقل خلالها الى العربية موضوعات علمية مختلفة، ويستمع الى لهجات هندية مبهمة صعبة الادراك ، والمسائل العلمية حتى نعرض لحلها ، وحرصه على سلامة منهجه ، كل هذه العوامل مجتمعة أثرت على تعبيراته وتفكيره . ولهذا نجد أعمال البيرونى تتميز بالنقاط الآتية :

١ ـ ترتيب الأفكار وتسلسلها (رجل منهجى) .

٢ ـ استعمال المصطلحات العلمية وابتداع التراكيب التى لا يصعب فهمها على المختصين .

٣ ـ عدم تنميق الجمل الا على قدر ما يقتضى الحال .

٤ ـ بقاء شىء من المسحة الأدبية ، (مع ميله الشديد الى الجدل والنقد) .

٥ ـ تجنب التعبيرات الفنية المائعة التى لا تجدى علميا .

٦ ـ العناية الفائقة بمقدمات كتبه ، اذ يصور فيها الأساس الفلسفى لكل كتاب .

والذين يجدون صعوبة فى تتبع ما يكتب البيرونى يمكنهم دائما معاودة التلاوة حتى يبين لهم القصد وتتفتح المعانى ، فهو لا يكتب لعامة الناس ولكن ـ كما يقول ـ للصفوة المختارة من العلماء .

والبيرونى كما قدمنا من أول الذين آمنوا بضرورة المشاهدة والاستقراء والرصد والتتبع واجراء التجارب . وتظهر هذه المدرسة بوضوح وجلاء فى كثير من أعماله وأعمال علماء بعده . وعلى هذا الأساس ألف كتبه فى خواص العناصر والجواهر

وفوائدها التجارية والطبية بأسلوب سهل غير معقد . وقد استخدم قاعدة أرشميدس المعروفة فشرح بوضوح توازن السوائل ، وعلل صعود مياه النافورات والعيون ورشح مياه الآبار من الجوانب ، وتكلم عن الأرقام التى تستعمل اليوم فى علم الحساب فى الشرق والغرب .

ومن أساليب البيرونى المبتكرة صياغة القوانين الرياضية ، فهناك مثلا (قاعدة البيرونى) وقوامها معادلة رياضية تستخدم فى حساب نصف قطر الأرض من مجرد التعرف على محيطها . وعندما أقام البيرونى ببلدة (ناندنا) بالهند ، عمد الى قياس درجة انحراف الأفق بالنسبة الى جبل فى تلك الناحية يشرف على البحر وعلى بقعة مستوية ، وذلك بأن قاس ارتفاع الجبل فوجده ٦٥٢٫٠٥ من الذراع · ثم قاس زاوية الانحطاط فوجدها ٣٤ دقيقة . وعلى هذا النحو أثبت أن طول الدرجة من خط نصف النهار حوالى ٥٦ ميلا وهو رقم لا بأس به كما ورد فى مكان آخر من الكتاب ·

والحق أن البيرونى تميز بالشجاعة العلمية ، وتمسكه بالعلم اليقين ، وبعده عن الأوهام ، واخلاصه لعلمه وعشيرته ولغته مع تواضعه . وأما أسلوبه فى الكتابة فقد كان أسلوبا علميا الى حد بعيد ، موجها الى الخاصة دون العامة . وقد آمن ايمانا تاما باللغة العربية وفضلها على غيرها من اللغات ، فكتب بها كل مؤلفاته تقريبا ، وبذلك رفع من شأنها ، وحبب الناس فيها ، ودافع عنها ضد كل تيار فارسى أو أعجمى .

منهج البيرونى فى البحث العلمى

يمكن أن نلخص هذا المنهج فى النقاط الآتية :

١ ـ البحث والتجربة هما الوسيلة الى تحصيل المعارف ، ومعنى ذلك عدم الأخذ بما يسلم به على سبيل القياس .

٢ ـ النجاح والتوفيق موهبة من الله تعالى ، ولعله يقصد بذلك أن الالهام والتوفيق فى الكشوف العلمية يلعب فيهما الاحتمال حسب تعبيرنا الحديث وتتحكم فيهما الصدفة الى أكبر حد ، وهو قول مقبول لا غبار عليه . ونحن نؤكد هذا المعنى لأن البيرونى يشترط المواظبة واستمرار الممارسة وهما من شروط زيادة الاحتمال الرياضى والتوفيق والنجاح العلمى .

٣ ـ التحذير من كلام التقاليد . وقد ذكرنا مثلا بأن قول العالم (الله أعلم) ليس فيه مسامحة بالجهل ، أى أن من يقولها لا يعفى نفسه من الجهل بما ينبغى أن يكون من علم الانسان .

٤ ـ التواضع أو التجرد من فكرة التفوق العنصرى أو الدينى .

٥ ـ وجوب الرجوع الى علوم الغير وخاصة من أهل اللغات الأخرى ، ومن هنا نجده يقبل على تعلم اللغة التى نقل عن أهلها (مثل اللغة الهندية فى ذلك الوقت) ومثل اللغات الحية فى هذا العصر ، أعنى الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية . ونحن نلزم اليوم طلاب الدراسات العليا تعلم بعض هذه اللغات . وفى واقع الأمر نجد أن مجرد الحرص على فهم ما يكتبه أهل اللغات الأخرى فهما سليما انما يتطلب تعلم لغاتهم .

٦ ـ لزوم الرجوع الى المراجع الأصيلة فيما يستعين به المرء أو ينقل عنه .

٧ – لزوم سلوك المسلك الحسى (أى كما قلنا القائم على القياس والاستقراء) فى طلب المعرفة ، وهو العنصر الرئيسى فى النهضة العلمية الحديثة التى خطت بالانسان خطوات سريعة وثابة ما كان يحلم بها الأقدمون .

وقد ألزم البيرونى نفسه بهذا المنهج فجاء تراثه العلمى أعجوبة الأعاجيب من حيث الكم والكيف ، الا أن أسلوبه فى الكتابة لم يكن سهلا سلسا ولكنه كان واضحا لأنه لم يكتب للعامة ولكن للعلماء المتخصصين .

ولم يغفل البيرونى أمر نقل علوم المسلمين الى الهندوس أثناء تنقله بينهم واقامته الطويلة فى بلادهم .

الفصل الثالث

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة

قلنا ان الفرصة كانت سانحة أمام عالمنا الموهوب البيرونى ابان مكثه بالهند وتدعيم حكم المسلمين بها على يد محمود الغزنوى (١) لكى يدرس أحوال الهنود ويجادل فلاسفتهم ويحذق لغاتهم ويقرأ أشعارهم .. ويدرس تقاليدهم وثقافاتهم ، ويصل الى أعماق مناهجهم فى البحث والتفكير ، ويقف على أساليب حياتهم ، وهكذا تهيأت له الظروف وتكاملت بما وهبه الله من ملكة البحث واستعداد للعمل لكى يبر بوعد كان قد وعد به من تأليف سفر يصف فيه حضارة الهند وأسسها العقائدية والعلمية ومعالمها

---

(١) دعم الفتح الاسلامى فى الهند على يد محمود الغزنوى ، الذى استعان فى حروبه ضد قوات الهند بالعلماء والأدباء ومن بينهم البيرونى الذى صاحبه ثلاث عشرة مرة فى فتوحاته بالهند البالغ عددها سبع عشرة مرة خلال سبع وعشرين سنة تبتدىء من عام ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) . وقد بدأ دور الحكم الاسلامى هناك عندما فتح الحدى تلك البلاد . ولم تخل الهند ممن كانوا يعرفون العربية قبل ذلك ، فعلى أية حال كانت قد ظهرت بالهند منذ زمن طويل ، أثر فتح المسلمين بلاد السند فى أواخر القرن الأول الهجرى ، طائفة من الهنود الذين يجيدون السنسكريتية والعربية ، وقد كتبوا بهذه الأخيرة .

الجغـــرافية ومبادئها الفلسفية التى بنيت عليها . وقد فرغ البيرونى من تأليف هذا السفر فى المحرم عام ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) . وكان قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره . ويحدثنا المستشرق الألمانى (ادوارد ساخاو) فى مقدمته التى صدر بها هذا الكتاب أثر تحقيقه ونشره لأول مرة فى أواخر القرن الماضى (عام ١٨٨٧ م) ان ذلك الســـفر القيم تضمن فيما تضمن الوفير من المعلومات الهـــامة التى كان يجهلها المسلمون فى عصر البيرونى والأوربيون حتى العصور الحديثة ، وقد ذاع اسم ذلك الكتاب بعنـــوان (تاريخ الهند) ، والحق أن قارىء الكتاب يحصـــل على فوائد ومعلومات يجهلها الكثيرون منا حتى الآن .

وفى الحقيقة يمكن القول بأنه سبق للبيرونى الى بعض مثل هذا العمل ، وأن تضاءل من حيث الكم والكيف : (١) سفير لدولة الاغريق ذهب الى الهند بعد جلاء الاسكندر عنها من أجل الاتفاق على تحويل الطريق التجارى البحرى الذى كان يؤدى الى البحر الأحمـــر فمصر الى طريق آخر برى يمر بالعراق فالشام . (٢) بوذيان من الصين قدما الهند فى القرنين الخامس والسابع الميلاديين على التوالى . والمعروف رغم ضياع معظم معالم تلك (المذكرات) أن السفير اليونانى أشـــار الى ازدهار حضارة الهند وقتئذ ، كما وصف الحاجبان الصينيان ما كانت تشرق به بلاد الهند من جامعات يؤمها الفلاسفة والشعراء ويغدق العطاء عليها الملوك والأمراء .

ويبدو أنه كان يكتب كتابه هـــذا على دفعات (منها ترجمة بعض الرسائل) قبل أن يدونه على صورته الأخيرة ببلدة غزنة ، ولكن النســـخة من الكتاب التى خطها البـــيرونى عام ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) والتى كانت تقـــع فى ٧٠٠ صفحة قد فقدت . وفى الحقيقة يرجع تاريخ أقدم مخطوطة لهـــذا الكتاب الى عام ٥٥٤ هـ

(١١٥٩ م) ، وهى التى حققهـا ونشرها لأول مرة المستشرق الألمانى ساخاو الذى أشرت اليه ، وقوامها ٣١٨ صفحة .

أهـداف الكتاب

كتب البـيرونى ، بعقـل العالم الرياضى والفيلسوف الذى لا تخفى عليه مناهج البحث ، شارحا ما شاهده ، بعينيه وسمعه بأذنيه ولمسه بنفسه أكثر مما كتب ناقلا أو قارئا ، وفى تقرير توخى الحقيقة على هذا النحو يقول فى مقدمة كتابه هذا :

(انما صدق قول القائل : ليس الخبر كالعيان ؛ لأن العيان ادراك عين الناظر عين المنظور اليه فى زمان وجـوده ، وفى مكان حصـوله . ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضـيلته تبين على العيان والنظر ، لقصورهما على الوجود الذى لا تتعداه آفات الزمان) .

ونجده يقول كذلك :

(فمن مخبر عن أمر كذب يقصـد فيه نفسه ، فيعظم بنى جنسه ويزرى بخلاف جنسه . وان كلا هذين من دواعى الشـهرة والغضب المذمومين . ومن مخبر عن كذب فى طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر ، وهو مقارب للأول . فان الباعث على فعله من دواعى المحبة والغلبة . ومن مخبر عن شىء متقربا الى خـير بدناءة الطبع أو متقيا لشر من فشل أو فزع . ومن مخبر عن شىء طباعا كأنه محمول عليه غير متمكن من غـيره ، وذلك من دواعى الشرارة وحيث مخابىء الطبيعة . ومن مخبر عن شىء جهلا وهو المقلد للمخبرين) .

ويقرر لنا البـيرونى أن كثيرا من مذاهب الهنـود ومبادئهم تدون بالكتب ، وبعضها تلوكه الألسن ، والبعض مخطوط وغـير مهذب ، ولكن الذين كتبوا لم يكن الصدق رائدهم فقد أبعـدهم

عن الصواب الهوى والرياء والخوف من الاضطهاد أو النقد ، ولكن أقلهم فى ذلك كاتب واحد هو (أبو العباس الابراتشهرى) الذى بعد أن امتدحه عاد فلام عليه .

ونحن ربما نستطيع أن نتبين أهداف الكتاب من قول البيرونى : (وليس الكتاب حجاجا وجدلا ، حتى استعمل فيه بابراز حجج الخصوم ومناقشة الزائغ منهم عن الحق ، وانما هو كتاب حكاية ، فأورد كلام الهند على وجهه وأضيف اليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم ، فان فلاسفتهم، وان تحروا التحقيق ، فانهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم ومواضعات ناموسهم ، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم الا أن يكون للصوفية ، او لأحد أصناف النصارى . لتقارب الأمر بين جميعهم فى الحلول والاتحاد) .

ولقد مهد البيرونى لتأليف هذا الكتاب بترجمة رسالتين فى المبادىء وصفة الموجودات وتخليص النفس من قبضة الجسد، وذكر فى مقدمة ترجمة الرسالة الثانية انه بصدد تأليف كتاب جامع فى عقائد الهنود . فلما أشار عليه السلطان محمود الغزنوى بذلك بر بوعده وأخرج الكتاب ، متوخيا الحقيقة ، غير هياب ولا وجل من مخالفة بعض ما فيه للعقل والمنطق كما قدمنا .

فصول الكتاب

قسم البيرونى كتابه الى ثمانين بابا أو فصلا تحدث فيها عن الكثير من الموضوعات الهامة والشائقة فى نفس الوقت مثل :

١ ـ معتقدات الهنود وشرائعهم ....

٢ ـ أحكام العبادات عندهم : القرابين ، والصيام والحجج، والأعياد . والصدقات ، والمباح والمحرم من المأكل والمشرب ..

٣ ــ نظام الطبقات فى المجتمع الهندى وأحكامه ٠

٤ ــ أنواع الخط ، وطرق الكتابة .

٥ ــ النحو والشعر وتراثهم الأدبى والعلمى عموما .

٦ ــ معالم البلاد الجغرافية .

٧ ــ علم الفلك عند الهنود ، وأنواع السنين والشهور والأيام وأحكام التنجيم ، ومعتقداتهم عن بعض ظواهر الطبيعة ممثلة فى المد والجذر والكسوف والخسوف ٠

وأول أبواب الكتاب : (فى ذكر أحوال الهند وتقريرها أمام ما نقصده من الحكاية عنهم) . وآخر أبواب الكتاب (فى ذكر أصولهم المدخلية الى أحكام النجوم والاشارة الى طرقهم فيها) ٠ وفيما يلى بيان بطائفة من أبواب ذلك الكتاب :

١ ــ « فى ذكر اعتقادهم فى الله سبحانه وتعالى » .

٢ ــ « فى سبب الفعل وتعلق النفس بالمادة » .

٣ ــ « فى حال الأرواح وترددها بالنتائج فى العالم » .

٤ ــ « فى منبع السنن والنواميس والرسل ونسخ الشرائع » .

٥ ــ « فى أسماء الكواكب والبروج ومنازل القمر وأمثال ذلك » .

٦ ــ « فى صورة الأرض والسماء عند المنجمين مثلهم » .

٧ ــ « فى ذكر المدة والزمان بالاطلاق وخلق العالم وفنائه ».

٨ ــ « فى المناكح والحيض وأحوال الأجنة والنفاس وفى العقوبات والكفارات » .

وبطبيعة الحال ليس من اليسير تلخيص كل ما فى الكتاب من موضوعات ، ولكننا نستطيع أن نتخير ثلاثة موضوعات هامة نعتقد أنها تهم القارىء .

١ ـ نحل أهل الهند واعتقادهم فى الله تعالى

يتعلق هذا الموضوع بمعتقدات أهل الهند عموما وفلسفتهم الدينية ، وفيها يقول أبو الريحان : (ويعتقدون فى الأرض أنها أرضهم ، وفى الناس أنهم جنسهم ، وفى الملوك أنهم رؤساؤهم ، وفى الدين أنه نحلتهم ، وفى العلم أنه معهم ، فيترفعون ولا يظنون ان فى الأرض غير بلدانهم ، وفى الناس غير سكانها ، وأن للخلق غيرهم علما غير علمهم ، حتى أنهم ان حدثوا بعلم أو عالم فى خراسان وفارس استجهلوا الخبر ولم يصدقوه) .

ويمضى البيرونى فيذكر أن الهنود انما يعتبرون غيرهم من الناس انجاسا ، لأنهم يذبحون البقرة ويأكلون لحمها ، وعلة تقديس البقرة فى الأصل كونها نافعة ، تخدم فى الأسفار وتنقل الأثقال وتفيد فى الفلاحة والزراعة وتمد الناس بألبانها .

وعلى الرغم من أن البيرونى كان قد قرر ضمن منهجه فى الكتاب عدم مناقشة معتقدات الهنود ، لأنه يكتب للخاصة الذين لا يعوزهم تقييد تلك المعتقدات أو نقدها ، الا أنه بصفته عالما مدققا كان يخرج أحيانا على هذا المبدأ الذى التزم به محاولا المقارنة بين ما عند الهنود وما عند غيرهم من الشعوب ، ثم هو يفيض ويسترسل شأنه فى ذلك شأن العلماء المتمكنين .

فحبه للانصاف يدفعه على تقرير أن الأوائل من الهنود لم يكونوا على تلك الدرجة من الغفلة وحب التعالى ، فيقول : « فهذا براهمة أحد فضلائهم يقول ان اليونانيين وهم أنجاس لما تخرجوا فى العلوم وأنافوا فيها على غيرهم وجب تعظيمهم » .

وفى محاولته تبرير موقف الأولين من أهل الهند لعدم أخذهم بمبدأ التفرقة بين الناس ، نراه يذكر كلمات أحد علمائهم المرموقين (باسديو) الذى قال فى طلب الخلاص : (ان العاقل

قد تساوى عنده البرهمى وجندال ، والصديق والعدو ، والأمين والخائن ، والحية وابن عرس . فان كان العقل هو الذى سوى فالجهل هو الذى فصل وفضل) .

ويضيف (باسديو) ما يفيد (ان البرهمى يجب أن يكون موفور العقل بادى النظافة مقبلا على العبادة مركزا همته فى العبادة) .

ومن أروع ما يقرره البيرونى أن الهنود يعتقدون بوحدانية الله ، بدليل ما حذث فى احدى الندوات حين سأل احد الملوك حكيما من حكمائهم على ملأ من الناس مستفسرا عن معنى من المعانى الالهية ، قال الحكيم « ان الله هو الذى لا أول له ولا آخر ، لم يتولد عن شيء ، ولم يولد شيئا الا ما يمكن أن يقال انه هو ولا يمكن أن يقال انه غيره ، وهل يمكن ادراك معرفته حتى بعد حق عبادته الا بالاشتغال به عن الدنيا بالكلية وادامة الفكر فيه ؟ » .

ويقسم أهل الهند الكائنات الى ثلاثة أجناس هى كما وردت فى الكتاب الأول الذى ترجمه البيرونى عن الهندية ليتخذه كأساس لكتابة تاريخ الهند واسمه (سانك) : الروحانيون فى الأعلى ، والناس فى الوسط ، والحيوانات فى الأسفل .

وينقسم أبناء جنسهم الى أربع طبقات أعلاها وأنقاها البراهمة وهم صفوة الانس ، تجيء من بعدهم طبقة (كشتر) ورتبتهم قريبة من البراهمة ، ثم طبقة (بيش) ، وآخر الطبقات جميعا (شودر) .

ويرى فريق من الهنود ان عدة النساء بحسب الطبقات ، فهى للبراهمة أربع ، ولكشتر ثلاث ، وليبش اثنتان ، ولشودر واحدة . ويجوز لكل واحد أن يتزوج فى طبقته وفى ما دونها . ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته . ويكون الولد منسوبا الى طبقة الأم . والمرأة اذا مات عنها زوجها فليس لها أن تتزوج، وتقبل على حرق نفسها مخافة الزلل ، ما لم يكن لها ولد يتكفل

بصيانتها وحفظها . والأصل فى المواريث عندهم سقوط النساء منها ، ما خلا الابنة فان لها ربع ما للابن . وجهازها من ميراثها . أما الزوجة فان آثرت الحياة ولم تحرق نفسها كان على الوارث رزقها وكسوتها ما دامت .

ومن تعاليم (باسديو) أنه بينما ينصرف البرهمى الى الديانة (رجال الدين) ، يكون كشتر شجاعا زلق اللسان لا يبالى بالشدائد (رجال الحرب) .. أما شودر فيجتهد فى الخدمة والتحبب الى من يعلوه مرتبة (العمال ومن فى مرتبتهم) . وأما الطبقة الوسطى فهى طبقة التجار وأصحاب الأراضى (بيش) .

وهناك أيضا طبقة المنبوذين وهم جنس واحد : هادى ، ودوم ، وجندال ، ويحترفون أدنأ الحرف ولا يخالطهم أحد أو يأكل معهم .

ويؤمن الهنود بنظرية تناسخ الأرواح ، وينقل عنهم البيرونى: أنهم يعتقدون بأن الأرواح غير مائتة ، ولا متغيرة ، وانما تتردد فى الأبدان .. ويضيف أن الصوفية (١) قد تأثروا بهذه النظرية اذ يحبذون حلول الحق فى الأمكنة كالسماء ، والعرش ، والكرسى. ومنهم من يجيزه فى كل الكائنات .

ونجد فى الكتاب الثانى الذى ترجمه البيرونى (باتانجل) هذا الحوار الذى يقطع باعتقادهم فى الله تعالى ووحدانيته وتسميته ببعض الأسماء الحسنى :

ـ من المعبود الذى لا ينال التوفيق الا بعبادته .

---

(١) الصوفية فى رأى البيرونى هم الحكماء ، فان سوف كلمة يونانية معناها الحكمة ، والفيلسوف هو الذى يحب الحكمة . ومنهم من يرجع اللقب الى اهل الصفة ويقول هم أصحابها فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ..

ـ هو المستغنى بأزليته ووحـــدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء عن الأفكار لتعاليه عن الأضـــداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدا ، اذ العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم . وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أو حال .

ـ فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟

ـ له العلو التام فى القدر لا المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود . وهو العلم الخالص من دنس السهو والجهل .

ـ أفتصفه بالكلام أم لا ؟

ـ اذا كان عالما فهو لا محالة متكلم .

ـ فاذا كان متكلما لأجل علمه فما الفرق بينه وبين العلماء الحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم ؟

ـ الفرق بينهم هو الزمان الذى تعلموا فيـه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم الى غـيرهم . فكلامهم وافادتهم فى زمان ، واذ ليس للأمـــور الالهية اتصـــال بالزمان ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم (براهم) وغيره من الأوائل على أنحـــاء شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ، ومنهم من فتح لواسـطة اليه بابا ، ومنهم أوحى اليه فقال بالفكر ما أفاض عليه .

ـ فمن أين له هذا العلم ؟

علمه على حاله فى الأزل ، واذ لم يجهـــل قط فذاته عالمة لم تكتسب علما لم يكن له ، كما قال بيذ (١) الذى أنزله على براهم :

(احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ وكان قبل بيذ) .

ــ كيف تعبد من لم يلحقه الاحساس ؟

ــ تسميته تثبت (انيته) ، فالخبر لا يكون الا عن شيء والاسم لا يكون الا لمسمى . وهو ان غاب عن الحواس فلم تدركه عقلته النفس وأحاطت بصـــفاته الفكرة ، وهـــذه هى عبادته الخالصة ، وبالمواظبة عليها تنال السعادة . فهذا كلامهم فى ذلك الكتاب المشهور .

وفى حديث دينى فى وصف الله ، دار بين العالم (باسديو) وأرجن ، كما ورد فى كتاب (كيتا) وهو بعض كتاب (بهارث) :

انى أنا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى بوفاة ، لا أقصـــد بفعلى مكافأة .

ولا أختص بطبقة دون أخرى لصـــداقة أو عداوة ، قد أعطيت كلا من خلقى حاجته فى فعله ، فمن عرفنى بهذه الصفة وتشبه فى أبعاد الطمع عن العمل انحل وثاقه . وسهل عتاقه وخلاصه .

٢ ــ فى حال الأرواح وترددها بالتناسخ فى العالم

أفاض البيرونى وشرح بالتفصيل فلسفة الهنود ومعتقداتهم المتعلقة بالله ، وبالوجود والأبدان والأرواح وتناسخها أو حلولها فى

---

(١) كلام يتلوه البراهمة ، معظمه مبهم وينسبونه الى الله تعالى ، كما نطق به براهم ، وهم يتدينون به ولم يرد ذكره فى القرآن ، ولعل براهم من الرسل الذين قيل فيهم فى سورة غافر مثلا :

« .. منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » .

مواضع الجزاء من الجنة والنار . والأرواح عندهم باقية لا تموت، وانما تحل فى الأبدان حسب مقتضيات الحال . وفى هـذا المعنى يقول أحد فلاسفة الهند وعلمائهم الروحانيين :

(فاعلم أنهم ليسـوا ولا نحن بموتى معا ، ولا ذاهبين ذهابا لا رجوع معه . فالأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وانما تتردد فى الأبدان على تغاير الانسان من الطفـولة الى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ثم العودة) .

ويقول البيرونى فى هذا الباب :

« وكما أن الشهادة بكلمة الاخلاص شـعار بايمان المسلمين ، والتثليث شـعار النصرانية ، والأسباب علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ، ولم يعد من جملتها ، فانهم قالوا :

(ان النفس اذا لم تكن عاقلة لم تحط بالمطلوب احاطة كلية دفعة بلا زمان ، واحتاجت الى تتبع الجزئيات واستقرار الممكنات، وهى وان كانت متناهية فعددها المتناهى كثرة ، والاتيان على الكثرة مضطرة الى مدة ذات فسحة . ولهذا لا يحصل العلم للنفس الا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناوبها من الأفعال والأحوال حتى يحصل لها فى كل واحـدة تجربة وتستفيد بها جـديد معرفة .. ولكن الأفعال مختلفة بسبب القـوى ، وليس العلم بمعطل عن التدبير ، وانما هو مذموم ، والى غرض فيه مندوب . فالأرواح الباقية تتردد لذلك فى الأبدان البالية بحسب الأفعال الى الخير والشر ، ليكون التردد مع الثواب مبنيا على الخـير ، فتحرص على الاستكثار منه . وفى العقاب على الشر والمكروه ، فتبالغ فى التباعد عنه ، ويصير التردد من الأرذل الى الأفضـل دون عكسه) .

ويزيدنا البيرونى بيانا فى وصف فلسفة الهنود الدينية حين يقول : « وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ . فزعموا أن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر والعلم من الجهل . والأرواح الشريرة تتردد فى النبات ، وخشاش الطير ، ومرذول الهوام الى أن يستحق الثواب فتنجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى » .

« ويبدو أن التناسخ فى الفلسفة الهندية ، وكان ذا أثر بعيد فى فلسفات وديانات الأمم الأخرى . فنجد أثره قويا فى الفلسفة اليونانية ، وفى الديانة المانوية ، وفى بعض المذاهب الاسلامية ، وفى التصوف ، وفى النصرانية » .

فنجد مثلا فيثاغورث عالم الرياضة اليونانى الذى ولد فى القرن السادس قبل الميلاد يقول :

« ان تناسخ الأرواح واقع بين الانسان والحيوان ، وان تحرير النفس يكون بترقيتها فى دورة الحياة عن طريق الشعائر الدينية والفكر والتأمل والفلسفة » .

أما الديانة المانوية فهى انما تنسب الى (مانى) الذى كما يقول البيرونى نفى من بلاد الفرس فدخل أرض الهند ودرس التناسخ ثم نقله من الهنود الى ديانته .

وأخذت آثار عقيدة التناسخ شكلا آخر عند بعض المسلمين، تميز بكونه أبعد مدى . فالصوفيون مثلا يجيزون حلول البارىء فى الأمكنة مثل السماء والعرش والكرسى ، ويذهب بعضهم الى أبعد من ذلك اذ يجيزون حلوله فى جميع الكائنات .

وتعليقنا على مثل هذه المذاهب أن الوجود وما حوى هو من أمر الله وارادته وهو يمسكه بتلك الارادة . فهل هم يعنون تلك الارادة يا ترى ؟ .

ويقول البيرونى كذلك فى ما يقول عن نحلهم :

« والدعاوى عندهم تسمع بالكتاب المكتوب على المدعى عليه، فان لم يكن فالشهود بغير كتاب ، ولا أقل فى عـــددهم من أربعة فما فوقها ، الا أن تكون عدالة الشاهد مقررة عنـــد القاضى فيجيزها ويقطع بشهادة ذلك الواحد » .

٣ - فى ذكر معارف من خطوطهم وحسابهم وغيره ، وشىء مما يستبدع من رسومهم .

هذا الجزء من الباب السادس عشر يقول فيه البيرونى :

« ان اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل فلذلك قصر على (راهن الزمان) الشبيه بالآن ، وأنى كان يتيسر نقل الخبر من ماضى الزمان الى مستأنفه على الألسنة وخاصـــة عند تطاول الأزمنة لولا ما انتجتــه قوة المنطق فى الانسان من ابداع الخط الذى يسرى فى الأمكنة سريان الرياح ومن الأزمنـــة الى الأزمنة سريان الأرواح ؟ فسبحان متقن الخلق ومصلح أمور الخلق » .

وهـذا القول من أروع ما قيل عن اللســـان وعن الكتابة . فاللغة وليدة العقل وأداتها اللسان الذى ينقل للسامع ما يريده القائل . ولولا الكتابة ما وصلت الينا أخبـــار الماضى وعلومهم وفلسفاتهم كاملة غير منقوصة .

ويزيدنا البيرونى بعد ذلك علما فيقول : الهنود لم يعتادوا الكتابة على الجلود كما كان يفعل اليونانيون ، ويروى قولا لطيفا (لسقراط) حينما سئل عن علة عدم اهتمامه بتأليف الكتب قال : انه يأبى أن يعمد الى نقل الحكمة من قلوب الناس الى جلود الضأن الميتة . ولقد استعمل المسلمون فى عصر صدر الاسـلام الكتابة على الجلود ، مثل ما فعلوا فى كتابة المصحف على جلود

الظباء ، ومثل كتاب نبى الهدى الى كسرى ملك الفرس ، ومثل عهد بنى خيبر من اليهود .

وكان المصريون يعرفون القرطاس ، ويصـنعونه من ورق البردى ، وعليه دونت كتب الخلفاء . (والكاغد) هو البردى المصرى أو الصحيفة عموما وقد عرفه الصينيون أيضا ، أما الهنود من أهل الجنـوب فقد استخدموا صحفا من ورق شجر باسق كالنخل أو النارجيل ، ولكنهم نسوا الكتابة بمضى الوقت حتى ظهر عالم منهم أحياها من جـديد . ومخارج حروفهم تخالف مخارج الحـروف العربية مما يجعـل النطق بها عسيرا على العـربى .

ويضيف البيرونى أن أرقام الحساب عند الهنـود تختلف عما عندنا ، رغم اننا نقلناها عنهم ، وهى أحسن ما عندهم ، وتفصيل الأمر أنه كانت لدى الهنود أشكال عديدة للأعداد ، اختار العرب منها مجموعتين ، كل مجموعة مكونة من تسعة أرقام ، وبذلك كونوا سلسلتين هما :

١ ــ سلسلة الأرقام الهنـدية التى يستعملها العـرب اليـوم .

٢ ــ سلسلة الأرقام الغبارية ، وقد انتشرت وعم استعمالها فى الأندلس ، ثم انتقلت من هناك الى أوروبا وهى تعرف الآن باسم الأرقام العربية .

وفى ذلك يقول البيرونى : « ان الأرقام الغبارية والهنـدية هى أحسن ما عند الهنـود ، وهى منتخبة من أرقام الحساب المتنوعة التى كانت معروفة عنـدهم » . والسلسلة الغبارية مرتبة على أساس الزوايا ، فالرقم ١ يتضمن زاوية واحـدة ، والرقم ٢ يتضمن زاويتين ، وهكذا .. ثم أدخل على هذه الأشكال من التحوير ما جعلها تبدو على النحو الذى نعهـده اليوم .

والأصل فى تسميتها غبارية ان الهنود كانوا يبسطون الغبار على لوح من الخشب مثلا ويرسمون عليه الأرقام اللازمة فى عمليات الحساب . (ولكن العرب هم أول من أدخلوا الصفر فى العمليات الحسابية وقد رمزوا له بنقطة تارة ودائرة تارة أخرى كما يفعل الفرنجة الآن . (وحسب المرء أن يرجع فى هذا الشأن الى كتاب مثل كتاب ـ مفتاح الحساب ـ لجمشيد) .

ويطيل البيرونى الحديث على النحو والصرف لدى الهنود من غير التعرض لقواعد نفسها . ويروى قصة سبب نشوء النحو عندهم بأن أحد ملوكهم كان يسبح مع احدى نسائه فقال لها : (ما ود كندهى) أى : لا ترشى على الماء ، ولكنها ظنته يقول (مود كندهى) أى : احملى حلوى ، فما كان منها الا أن ذهبت وأحضرتها ، الا أن الملك غضب واحتدم بينهما الخصام واشتد الكلام ، ثم احتجب الملك غاضبا كعادة الهنود فى تلك الظروف الى أن جاءه عالم فيلسوف ذهب الى (مها ديو) فصلى وسبح وصام وتضرع فظهر له (مهاديو) وأمده بقوانين بسيطة من النحو . فرجع العالم الى الملك وعلمها له ، ومن ثم بدأ علم النحو عند الهنود .

وهكذا يشير البيرونى بطريقته الجذابة الى أن نشأة النحو الهندى شبيهة بما صنعه (أبو الأسود الدؤلى) ، (الذى كان من خيار التابعين وساداتهم ، وقد شهد مع الامام على موقعة (صفين) وهو أول من وضع الشكل على أواخر الكلمات . وقد توفى بالبصرة عام ٦٩ هـ بعد أن بلغ الخامسة والثمانين من عمره) .

وهم يفتتحون كتبهم (بأوم) كما نفتتح نحن كتبنا باسم الله تعالى ، وصورته ليست من حروفهم ولكنها صورة منفردة .

ويلاحظ القارىء بطبيعة الحال أننا تعمدنا عند هذه المرحلة

أن نسبق كلام البيرونى بشرح وتعليق يسهل الفهم ويقرب المعانى ، ففى كل هذا نجد البيرونى يقول :

(وليس للهند عادة بالكتابة على الجلود كاليونانيين فى القديم . فقد قال سقراط حين سئل عن تركه تصنيف الكتب : لست بناقل العلم من قلوب البشر الحية الى جلود الضأن الميتة . وكذلك كانوا فى أوائل الاسلام يكتبون على الأدم كعهد الخيبريين من اليهود وككتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى كسرى ، وكما كتبت مصاحف القرآن فى جلود الظباء ، والتوراة تكتب فيها أيضا . فقوله تعالى ، يجعلونه قراطيس أى طوامير ، فان القرطاس معمول بمصر من لب البردى يبرى فى لحمه . وعليه صدرت كتب الخلفاء الى قريب من زماننا ، اذ ليس ينقاد لحك شىء منه وتغييره بل يفسد به . والكواغد لأهل الصين ، وانما أحدث صنعها فى سمرقند سبى منهم ثم عمل منه فى بلاد شتى فكان سدادا من عوز . فالهند أما فى بلادهم الجنوبية فاهم شجر باسق كالنخل والنارجيل ذو ثمر يؤكل وأوراق فى طول ذراع وعرض ثلاث أصابع مضمومة يسمونها تادى ويكتبون عليها ، ويضم كتابهم منها خيط ينظمها من ثقبه فى أوساطها فينفذ فى جميعها . وأما فى واسطة المملكة وشمالها فانهم يأخذون من لحاء التوز شجر الذى يستعمل نوع منه فى أغشية القسى ويسمونه بهوج فى طول ذراع وعرض أصابع ممدودة فما دونه ، ويعملون به عملا كالتدهين والصقل يصلب به ويتلمس ، ثم يكتبون عليها . وهى متفرقة يعرف نظامها بأرقام العدد المتوالى ، ويكون جملة الكتاب ملفوفة فى قطعة ثوب ومسدودة بين لوحين بقدرهما ، واسم هذا الكتاب يؤتى ، ورسائلهم وجميع أسبابهم تنفذ فى التوز أيضا) .

(فأما خطهم فقد قيل فيه انه كان اندرس ونسى ولم يهتم له أحد حتى صاروا أميين ، وزاد ذلك فى جهلهم وتباعدهم عن العلم حتى جدد بنياس بن براشر حروفهم الخمسين بالهام من الله .

واسم الحرف أكثر ، وذكر بعضهم أن حروفهم كانت أقل ثم تزايدت وذلك ممكن بل واجب . فقد كان آسيذس صور لتخليد الحكمة ستة عشر رقما وذلك فى زمان تسلط بنى اسرائيل على مصر ، ثم قدم بها قيمش وأغنون الى اليونانيين فزادوا فيها أربعة أحرف واستعملوها عشرين ، وفى الأيام التى فيها سم سقراط ، زاد سمونون فيها أربعة أخرى فتمت عند أهل أثينية حينئذ أربعة وعشرين وذلك فى زمان أردشير بن دارا بن أردشير بن كورش على رأى مؤرخى أهل المغرب ، وانما كثرت حروف الهند بسبب افراد صورة للحرف الواحد عند تناوب الاعراب اياه والتجويف والهمزة والامتداد قليلا عن مقدار الحركة ، ولحروف فيها ليست فى لغة مجموعة وان تفرقت فى لغات وخارجة من مخارج قلما تنقاد لاخراجها آلاتنا ، فانها لم تعتده بل ربما لا تشعر أسماعنا بالفرق بين كثير من اثنين منها) .

وكتابتهم من اليسار نحو اليمين كعادة اليونانيين لا على قاعدة ترتفع منها الرؤوس وتنحط الأذناب كما فى خطنا ، ولكن القاعدة فوق وعلى استقامة السطر لكل واحد من الحروف ، ومنها ينزل الحرف وصورته الى أسفل ، فان علا القاعدة شىء فهو علامة نحوية تقيم اعرابه .

(فاما الخط المشهور عندهم فيسمى سدماترك وربما نسب الى كشمير ، فالكتابة فى أهلها ، وعليه يعمل فى بارانسى ، وهو وكشمير مدرستا علومهم ، ثم يستعمل فى مدديش ، أعنى واسطة المملكة ، وهى ماحول كنوج فى جهاته ، ويسمى أيضا آرجافرت ..) .

(ومفتتح الكتب عندهم بأوم الذى هو كلمة التكوين كافتتاحنا باسم الله (وصورته ليست من حروفهم) وانما هى صورة مفردة له للتبرك مع التنزيه كاسم الله عند اليهود فانه يكتب فى الكتب ثلاث ياءات عبرية ، وفى التوراة يهوه بالكتابة وأذونى باللفظ وربما

قيل يه فقط ، ولا يكتب الاسم الملفوظ به وهو أذونى . وليسوا يجرون على حروفهم شيئا من الحساب كما نجريه على حروفنا فى ترتيب الجمل . وكما أن صور الحروف تختلف فى بقاعهم كذلك أرقام الحساب وتسمى انك . والذى نستعمله نحن مأخوذ من أحسن ماعندهم . ولا فائدة فى الصور اذا ما عرف ما وراءها من المعانى . وأهل كشمير يرقمون الأوراق بأرقام هى كالنقوش أو كحروف أهل الصين لا تعرف الا بالعادة وكثرة المزاولة ، ولا تستعمل فى الحساب على التراب) .

الفصل الرابع

رسائل البيرونى
(البيرونى عالم الهندسة والفلك)

عالج البيرونى فى بعض رسائله العديد من المسائل العلمية بطرق تثبت نبوغه فى علوم الرياضة وتفوقه على غيره من رجال عصره .. وقد عمد الى تصحيح ما وقع فيه غيره من أخطاء من أمثال ثابت بن قرة والكندى وغيرهما . والرسائل التى سنتعرض لدراستها فى هذا الباب هى :

١ ـ رسالة فى استخراج الأوتار فى الدائرة لخواص الخط المنحنى الواقع فيها .

٢ ـ رسالة افراز المقال فى أمر الظلال .

٣ ـ رسالة فى تمهيد المستقر لتحقيق معنى المر .

٤ ـ رسالة فى راشيكات الهند ، أو ذوات الثلاثة المواضع . (راش هو البرج ، وراشيك هو الموضع من الصورة ، ويسمى المنجمون البيوت الاثنى عشر راشيك ، والهند يسمون التناسب ترى راشيك أى ذو الثلاثة مواضع) .

(ا) استخراج الأوتار الخ ...

فن الهندسة عند البيرونى معرفة نسب الأجناس الواقعة تحت الكمية بعضها الى بعض ، وهى التى يتصل بها الى معرفة مقدار كل ما يحتاج اليه من مذروع ومكيل وموزون مما بين مركز العالم وبين أقصى محسوس عنه ، وبها تعقل الصور مجردة عن المواد ، وتتصور حقيقة البرهان تصور انطباع حتى لا يذهب على القيم بها ما يذهب على كثير من المحصلين فى المنطق مهما لزم مسلك صناعته .

ويورد البيرونى بعض (النظريات) التى يسمى الواحدة منها (دعوى) على النحو الآتى :

١ ــ اذا عطف فى قوس ما من دائرة خط مستقيم على غير تساو وانزل عليه من منتصف تلك القوس عمود فانه ينقسم به بنصفين .

٢ ــ اذا قسم قوس بنصفين وبقسمين مختلفين فان مضروب وترى القسمين المختلفين أحدهما فى الآخر مع مربع وتر مابين النصف وبين أحد المختلفين مساو لمربع وتر نصف القوس .

٣ ــ القوس المغطاة اذا قسمت بنصفين وزيد عليها من دائرتها قوس ما على استدارتها فان أوتار تلك الأقسام تقبل أيضا خاصية شبيهة مما يقبلها الخط المستقيم كذلك ، وهى أن مضروب وتر القوس المغطاة مع الزيادة فى وتر الزيادة مع مربع نصف القوس المغطاة يساوى مربع وتر مجموع هذا النصف مع الزيادة .

ويورد البيرونى فى كتابه العديد من براهين هذه الدعاوى على يد أمثال :

اذرخور بن أشتاذ جشتش ، أبو سعيد الضرير بجرجان ، أبو على الحسن بن الحسن البصرى ، أبو سعيد أحمد بن محمد بن عبد الجليل السجزى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشنى ، القاضى أبو على الحسن بن الحرث الحبوبى ، أبو نصر منصور اين على بن عراق مولى أمير المؤمنين ، أبو سعيد الجرجانى ، أرشميدس فى كتاب الدوائر ، سليمان بن عصمة السمرقندى ، أبو الحسن على بن عبد الله بامشاذ ، أبو الحسن المصرى بسمرقند، كما لا يغفل براهينه هو بالذات ، وبعض البراهين الأخرى التى لا يعرف لها صاحب .

وفى (الدعوى الرابعة) يعرج البيرونى الى مسائل مساحة المثلث بالتوصيل ، ويورد أمثلة من براهين أرشميدس وغيره ، ومسائل رصد الميل الأعظم وهى مسائل رياضية بحتة لا نحب الخوض فيها حتى يتسع الكتاب لغير ذلك من الأعمال فى شتى المجالات التى طرقها البيرونى .

وعالج البيرونى فى الرسالة الأولى كذلك موضوعات :

١ ــ معرفة موضع أوج الشمس وما بين المركزين من رصد ثلاث نقط بينهما فى الرؤية أرباع دوائر (وردت فى كتاب البيرونى : فى التطريق الى تحقيق حركة الشمس) .

٢ ــ معرفة ذلك من نقطتين فى فلك البروج بينهما نصف دائرة وبعد الثالثة عنهما كيف اتفق .

٣ ــ معرفة النقطة المنكسفة من أحد النيرين (واردة فى كتاب البيرونى : فى المسائل المفيدة) .

٤ ــ معرفة قوس رجوع الكوكب

(واردة فى كتاب البيرونى : فى ابطال البهتان بايراد البرهان على أعمال الخوارزمى فى زيجه)

٥ ــ مسئلة النخلة ويجيء ذكرها فى كتاب الجبر والمقابلة .

اذا كان خشبة معلومة الطول منصوبة على الأرض قائمة على وجهها قد انكسرت وانعطفت حتى بلغ الأرض فكان مابين موضع رأسها من الأرض الى أصلها معلوما وأردنا معرفة انكسارها ضربنا نصف البعد الذى بين موضع رأســه من الأرض وبين أصله فى نفسه وقسمنا المجتمع على نصف طول الخشبة فما خرج فهو الذى ان نقص من طول الخشبة . بقى مابقى منها قائما على وجه الأرض . وان زيد على نصف طولها اجتمع مقدار ما انكسر وانعطف الى الأرض .

ويعطينا البيرونى البرهان مفصلا على صفحات رســالته ، الا أننا لا نجد داعيا لاعادته هنا .

٦ ــ مسألة الطائرين والسمكة وهى متداولة (فى كتاب الجبر والمقابلة)

نخلتان ل ز ، ا ح معلومتا الطولين على حافتى نهر عرضــه ا ب ، وقد ظهر على وجه الماء فيه سمكة فانقض عليها من رأسى النخلتين طائران واصطاداها معا فى وقت واحد ونريد أن نعلم بعد ظهور السمكة من شاطىء النهر وما طاره الطائران . فلنضرب كل واحد من طول النخلتين فى نفسه ونقسم فضل مابين المجتمعين منهما على عرض النهر فما خرج نزيده على المقسوم عليه ونأخذ نصف ما بلغ فيكون بعد موضع ظهور الســمكة من أصل النخلة الصغيرة . وان القينا ذلك من عرض النهر بقى بعده من أصــل النخلة الطويلة . وان ضربنا طول النخلة فى نفســـه وبعد مابين أصلها وبين موضع السمكة فى نفسه وأخذنا جذر مجموع المبلغين كان ذلك هو ماطاره كل واحد من الطائرين .

وفى ذكر أوتار الدائرة نجده يعالج بالتفصيل :

١ ــ معرفة وتر العشر فى الدائرة .

٢ ــ معرفة وتر مجموع قوسين معلومتى الوتر .

٣ ــ معرفة وتر الثمن .

٤ ــ معرفة وتر نصف مجموع قوسين معلومتى الوتر .

٥ ــ معرفة وتر مابين قوسين معلومتى الوتر ، الى غير ذلك من الموضوعات الرياضية العديدة التى تجرى على هذا النمط وكانت تشغل بال المشتغلين بالعلوم الرياضية أو الفلكية .

(ب) افراد المقال

فى أمر الظلال

يقول البيرونى فى مقدمة الرسالة :

(الكلام فى الادراك البصرى وكيفية الحال فى المخروط الكائن بين البصر والمبصر الذى يلازم كونه دون أصبعه تجرى هندسة المناظر واختلافها . أهو من شعاع يخرج من الناظر الى المنظور اليه أم من الشعاع الحاصل لصور الأشياء وألوانها وانطباعه فى الرطوبة الجلدية من العين ، هو فلسفى متصل بالمباحث النفسانية والموهومات المجردة وموكول النفس الى القمين بها) .

(فأما البحث عن النور الموجود وما يتعلق به وبعدمه المسمى ظلا بالعموم وظلا بالخصوص فهو من نوع التعاليم الرياضية التى تحصل بها اعراض كل مستند الى الدين معتضد بمناهج الصراط المستبين كالشيخ أبى الحسن مسافر بن الحسن فى تحليله بهذه الصفات قد اشتهر بفرط الاهتزاز لمعرفة أوقات الصلوة وشدة الولوع بما يوقف بها عليها من الآلات اهتماما منه لسعادة العقبى عندما أهله الله له من سعادة الأولى تحمله على ارتياد الفضيلة بين السعادتين) .

(وأنا مورد فى ذلك مايكون كافيا فى حل هذه العقدة ومكتسب بها مزايا المحمدة ، فما من شخص فى العالم الا ويسعى طبعا لابقاء نوعه ، ويجتهد اختيارا لتخليد ذكره . فللضرورة يقتصر العاقل على خلافة اسمه جسمه عند الاحترام بكرور الليالى بعده والأيام ، ولأن الخير محبوب لذاته بدلالة محبة الأشرار اياه لأنفسهم وان راعوا عنه فى غيرهم صار المرغوب فيه من الحديث أحسنه ومن الذكر الباقى أطيبه وأزينه . فطوبى لمن استدام نعمة الله تعالى بادامة الشكر وايثار الأحمد من الأمر . وأنا أسأل الله للشيخ توفيقا يحوز به قصب السبق الى مبتغاه ولنفسى سعيا فيما يقرب الى رضاه ويديم الامتاع بكرمه الذى أمتع الجمهور به ، انه ولى التحويل للمبائح الجليلة بمنه وسعة جوده) .

ويعطى البيرونى بعد ذلك (فهرست) أبواب الكلام الذى قسمه الى ثلاثين بابا منها :

١ ــ فى الحاجة الى الحركة الأولى فى السماء نحو المغرب ضرورية فى هذا المطلوب وأمثاله .

٢ ــ فى ذكر النور والظلمة والضياء والظل .

٣ ــ فى ذكر التغايير التى تلحق الظل فى المقدار والوضع .

٤ ــ فى ذكر ما يرسمه أطراف الظل فى الآفاق .

٥ ــ فى التغايير التى تلحق الظل من جهة اختلاف وضع المضىء فى السمك .

٦ ــ فى الطريق الذى به ينتظم استعمال الظل والمقياس .

٧ ــ فى أصناف الأقسام التى يقسم بها المقياس .

٨ ــ فى نقل أنواع الظلال بعضها الى بعض .

٩ ـ فى ظل المستوى والارتفاع واستخراج احدهما من الآخر اذا كان مجهولا .

١٠ـ فى ظل المعكوس والارتفاع واستخراج أحدهما من الآخر اذا كان مجهولا .

١١ـ فى الاشتراك الذى بين نوعى الظل وتناسبهما واستخراج أحدهما بأنها ساجدة فهو بمعنى الدلالة مثل قوله تعالى : (وان من شىء الا يسبح بحمده) ، فالتسبيح فى ذات الشىء هو بزوغه الى كماله ...

وكما قلنا فى هذه الرسالة ثلاثون بابا .

١ ـ ٣

(وقد قيل فى النجم أنه الكواكب وذلك غير ممتنع ، فان الاستدلال من النجوم بحركاتها يكون بلا وسائط ومن النبات بوسائط . كذلك لا شىء ألزم للأشياء من أظلالها دلت الشمس على حدودها أو لم تدل عليها . فظل الشخص منبسط على الأرض البساط الساجد الواضع رأسه على الأرض معفر أو زواله عن جرمه الى أخرى . وتنقله من موضع الى موضع ومن مقدار الى آخر منبه على سببه وهو حركة الشمس من الطلوع الى الأفول ، وهى من أعظم الأدلة وأبهرها على المحرك الأول الذى يتحرك) .

(فالظل الذى هو أقرب الأشياء الى الانسان سلم الاستدلال الأبعد فهو اذن سجوده سواء تنبه منه صاحبه على الواجب وكان طالعا أو لم يتنبه وكان كارها يسجد بعضه ولا يسجد لبعض ، ويستدل غيره به ولا يستدل هو بنفسه . فالعقل يوجب على صاحبه أن يستدل بمثاله المنتقل مع ثباته من غير أن ينفك عنه أو يزايله ، ويعتبر بكثرة تغاييره نفسه وان لا يتخلف عن طائر يسمى ملاعب ظله قد استغنى بشغله به عن غيره وان لا يكون

كالظليم يرتاع من ظله بل يعلم انه غير ممكن من الامتناع عن أن يسجد ظله أو ينتقل من يمين الى شمال) .

وانما خص الله تعالى ذكر الغدو والآصال لفرط انبساط الظل فيهما وصدق مشابهته للسجود عندهما مع انتصاب الظل لأنه الممكن أن يكون حينئذ للمظل بدل الانبساط انقباض بتغير وضع من المظل وامالته عن الانتصاب كما قال أبو الفرج بن هند :

لنا مالك مافيه للملك آلة
سوى انه يوم السلاح متوج
أقيم لاصلاح الورى وهو فاسد
وكيف استواء الظل والعود اعوج

وانما أخذ هذا التشابه فى المتلازمين من قول أبو ثرابه حين سئل عن صاعد فقال : (ما يفضل ظل وزارته عن شخصه) .

ويمضى البيرونى فيقول :

(وأحد الدواعى للنصارى الى استقبال المشرق مافى الانجيل أن مريم المجدلانية ذهبت بالغداة الى قبر المسيح ورأت فى الطريق ظلا يسبقها ، فالتفتت فاذا هو بالمسيح وقد سجد ظله فى هذه الحكاية ، فلمن يسجد ليت شعرى ان كان هو الهائل قد أدبر الظل عنه وسجد لغيره وشهد ان المظل مربوب ؟ ولئن رأت مريم المسيح عند التفاتها انه كان مستقبلا للمغرب الذى استدبرته النصارى فى موضع ملتهم وناقضوا فان ذينك الوقتين وهما الطلوع والغروب أحق الأوقات بمعرفة الحركة فى الطالع والغارب عند تغير شكله فى المنظر كما استدل ابراهيم عليه السلام بذلك فيهما) .

٤ ـ فى مايرسمه أطراف الظل فى الآفاق

يقول البيرونى :

لأبى الحسن ثابت بن قرة[1] فى تحديد الخطوط التى ترسمها أطراف الأظلال فى آفاق الأرض كتاب حسن كاف ، وذكرها أيضا ابراهيم بن سنان فى كتاب الأظلال ذكرا مجملا ، ولأن نهاية ربع دائرة فى أفق من تحت القطب يرسم طرف الظل دوائر هى بالفعل متصلة خطا لولبيا على مثال اتصال المدارات التى ترسمها الشمس .

وقد وقع لأبى الحسن ثابت بن قرة فى مسائله المشوقة سهو هو قوله ان الضوء الداخل فى الثقب الى البيوت يكون أسطوانيا ، ولهذا يقطعه الحيطان بقطوع ناقصة كأن الاسطوانة تختص بهذا القطع دون المخروط ، وليس يكون الشعاع المذكور اسطوانى الشكل وانما يكون مخروطيا .

فلتكن الشمس ـ كما فى شكل (١) ـ هى ا ب ، والجدار م س ، والثقبة حـ د ، فالضوء الداخل فيها لا يكون اسطوانيا لأن الثقبة أصغر من الشمس . وهب انها مساوية لها فليس دخول الشعاع فيها على هيئة اسطوانة ا حـ ك ـ ل د ب ، ولكنه يمتد من ب الى حـ شعاع ب حـ م ، ومن ا شعاع ا د س . فحينئذ يقطع جدار م س مخروط ط م س على قطع ناقص . ومنهما كانت الثقبة أبعد من الجدار كان القطع أعظم لأن رأس المخروط هو ط

---

(١) ولد عام ٢٢١ هـ ـ ٨٣٥ م . وتوفى عام ٢٨٨ هـ ـ ٩٠٠ م كنيته (أبو الحسن) ولكن لم يعرف له ولد اسمه (حسن) ، بدأ حياته صيرفيا فى (حران) ، ثم رحل الى بغداد حيث اشتغل بالفلك والتنجيم ، واتصل بالخليفة (المعتضد) الذى أدخله فى زمرة المنجمين . وكذلك اشتغل بالرياضة والطب . وله العديد من المؤلفات التى منها كتاب فى أشكال طرق الخطوط التى يمر عليها ظل المماس .. الخ .

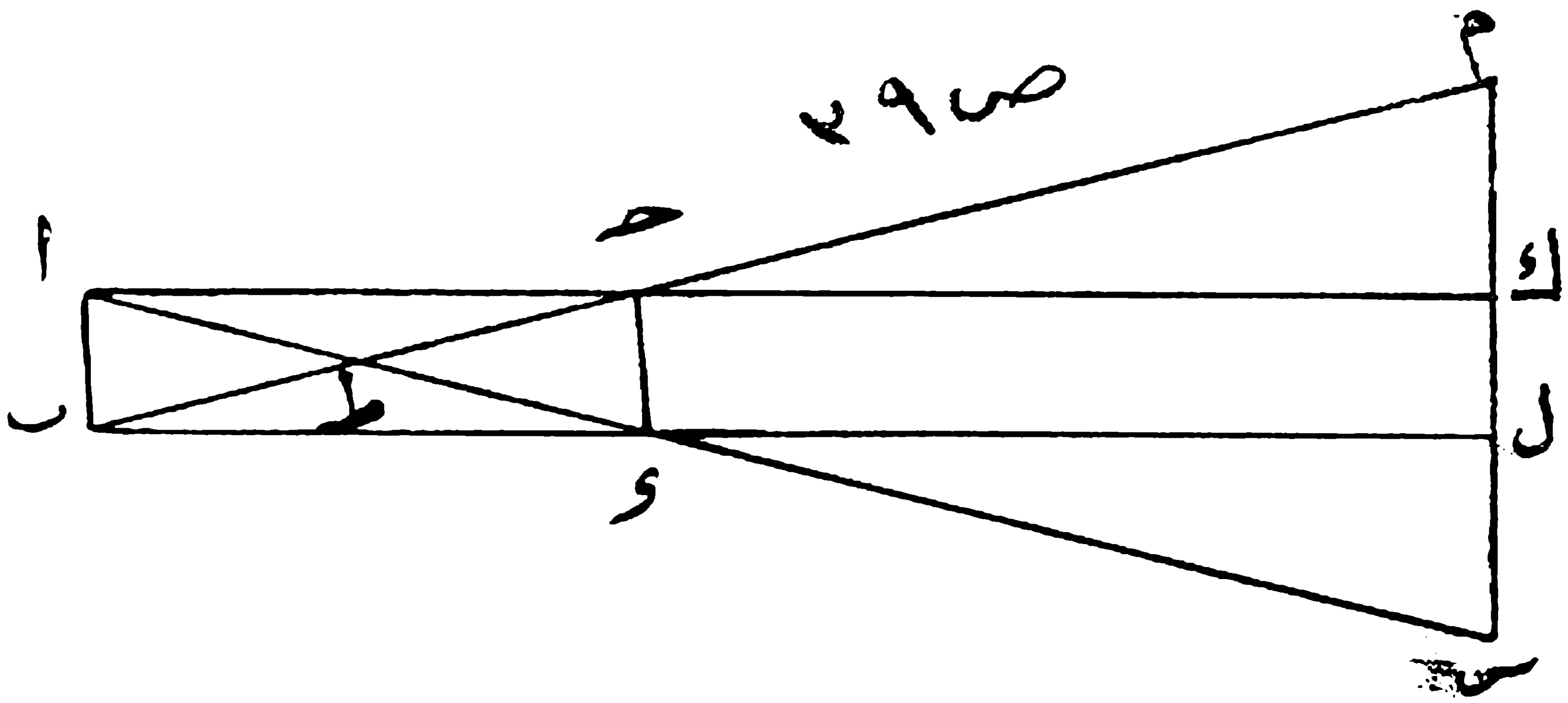

شكل (١)

فى جهة الشمس . والحال على مثله اذا كانت الثقبة أصغر من الشمس من كون الشعاع مخروطيا دائما لا يجوز غيره .

وتعليقنا على هذا القول السديد انه حتى اذا ما بلغ الثقب من الصغر الحد الذى يجعله أشبه شىء بالنقطة صار هو رأس المخروط كما فى صناديق آلات التصوير .

ثم يقول البيرونى :

ولأن الأجرام السماوية التى توجد للأشخاص ظلل فى أشعتها هى الشمس والقمر فقط لأن الزهرة وان وجد لها شىء من ذلك فليس بحيث يكمل حتى بضبط ظلل شخص منها ، وانما يوجد لها فى البيوت المظلة ضياء اذا أشرقت على الثقب النافذة اليها ، ويتخيل منها كالظل لا يكاد يتحصل ، والمشترى أعجز منهـا فى هذا الباب ...

ولما صعب ادراك اختلاف منظر الشمس بالآلات وقل تأثيره فى الأظلال والارتفاعات خفى مالها من اختلاف الأحـوال فى أوج فلكها وحضيضه ، والا كانت نسبة الظل الى الشخص عند الأوج أصغر منها عند الحضيض .

ولهـــذا السبب المتوهم غير الموجود قال الكندى ان ظل رأس الحمل أقصر من رأس الميزان ، وكان يجب عليه أن يشترط فيه زمانه بسبب تحرك الأوج .

٥ ، ٦ ـ الطريق الذى ينتظم به استعمال الظل والمقياس .

يقول البيرونى :

« أجزاء الأرض الناتئة عن السطوح الموازية للأفق اذا لم يشف وشرقت الشمس عليها كانت كظل الأرض فى حدوث ظل لهـا فى الجهة المقابلة لجهة الشروق ...

والظلال التى تظل الحيوان والنبـــات على وجهين : ظلال الأشجار وحيطان المساكن ، وظلال الجبـــال . ومعلوم ان ظلال النوع الأول قاصرة فى النفع عن الأخرى لشيئين :

أحدهما أنها عرضية وظلال الجبال المظلمة ثابتة غير زائلة . والثانى ان ظل كل شخص انما تكون قوته فى الوقاية من الحـر والبرد معا بحسب كثافة أجزاء الشخص السائر المولد للظل .. » وتقول العرب : (ليس أظل من حجر ولا أدفى من شجر) ...

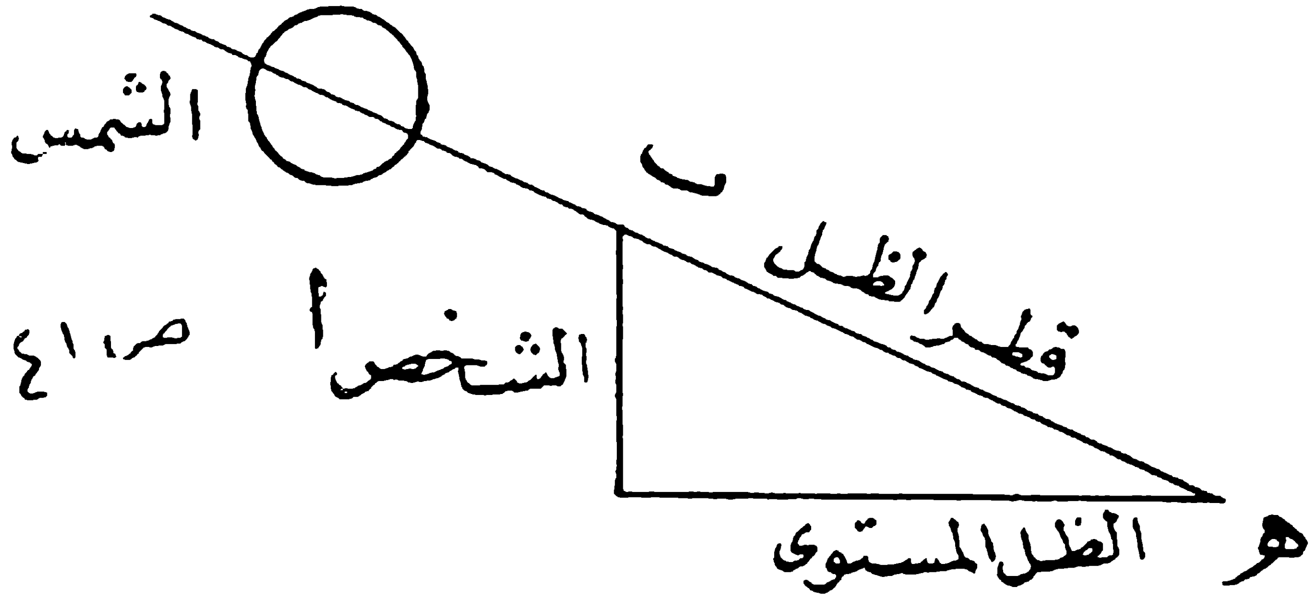

شكل (٢)

مثال الظل المستوى :

ا ــ جرم الشمس ، و

ب جـ ــ المقياس قائم على

هـ جـ ــ الموازى لسطح الأفق ، و

ا ب هـ ــ شعاع الشمس المار على رأس شخص ب حـ ــ فيصير ب جـ هـ ــ من الهواء هو الظل ، الا أن

هـ جـ ــ هـو الذى يسمى ظلا مستويا ، على ان أصله حـ ، وطرفه هـ ، و هـ ب الواصل بين طرفى المقياس والظل هو قطر الظل .

واما النوع الثانى من الظلال فما وارى مقياسه سطح الأفق ثم كان المقياس عمودا على السطح القائم على كل واحد من سطح الأفق ودائرة الارتفاع . ونفس الظل يكون منطبقـــا على محور الأفق ، ويسمى معكوسا لأن رأسه تحت أصله ومنتصبا أيضـــا لكونه على القطر الذى عليه الانتصاب فى ذلك المسكن من أقطار الكرة على هذا المثال ...

وكلام الصوفية يكاد أن يكون غير مفهوم عندهم فضـــلا عن عند غيرهم ، وخاصة كلام الحسين بن منصور الحلاج (١) وهو يقول فى كتاب الكبريت الأحمر ان ظل القائم كان منتصبا قائمـــا وسائر الأظلة منخفضة منبسطة ...

---

(١) ورد ذكر الحلاج هذه الأيام على لسان بعض الكتاب الذين حاولوا اظهار الاسلام بالتعصب ضد العلم ، وعدم حرية الفكر ، بدليل مقتل الحلاج هذا أثر خروجه على الدين . والحقيقة ان الحلاج كان يعمل ضـــد الدولة وأمنها ، وربما تستر بستار العلم والصوفية ، وقد أعدم عندما عثروا معه على مكاتبات متبادلة مع أعداء الدولة فى ذلك الحين ، وليس بسبب مروقه على الدين . ونحن نسجل هذا للحقيقة والتاريخ اذ لم تعهد الأرض أمة أكثر تسامحا من العرب المسلمين ، كما لم تعرف البشرية دينا أكثر تعضيدا وتقديرا ومؤازرة للعلم والعلماء من الاسلام .

٧ - الأقسام التى تقسم بها المقاييس

يقول البيرونى :

(الظل مقدار مستقيم الصورة لمقياس مستقيم بالضرورة . وان عمل على آلة مقوسة فان التقوس لا يغنى فى صنعته شيئا ، والارتفاع على قوس من دائرة ، والتناسب بين القسى والخطوط المستقيمة غير معلوم ولا منتظم على مناهج النسب المعلومة ، فهو اذن مابين أضلاع المثلث الكائن من المقياس والظل وقطره وبين أضلاع المثلث الكائن من جيبى الارتفاع وتمامه والجيب الأعظم ..)

(... ان الشبر المعتدل بالأصابع المعتدلة قد قدر اثنا عشر أصبعا ، لأنه ثلاث قبضات ، والقبضة أربع أصابع ، ومقدار الشبر متوسط بين الاستقبال عظيما وبين الاستنزاز صفرا . ويكون أكثر ما يستصحب الانسان فى السفر والحضر من المعادن القريبة منه كالسكاكين والمساطر ، والمال ، والأوتاد ، وما أشبهها ...)

(ولقد احتاج المسلمون الى أظلال نصف النهار لمعرفة وقت العصر من أجل وجوب الزيادة فى المحافظة على صلاتها لاشتباه وقتها ، لأن المنتدبين لمراعاة ذلك هم مأذنو المساجد . فالمحققون منها قد قلدوا أصحاب صناعة التنجيم فى آلات لذلك عملوها ونصبوها لهم . والزائدون عليهم بالاجتهاد فى صناعتهم قد ضبطوا مقادير أظلال الزوال فى بلدانهم طول أيام السنة بالامتحان والاعتبار حتى تولوا استخراج وقت العصر منها ، فجعلوا قدودهم مقاييس اذ هى أعمدة طبيعية ، ونسبوا اليها تلك الأظلال المضبوطة عندهم ، لكنهم احتاجوا الى مسح الظل ، وكان القدم أقرب اليه ، لأنها فى أصله ، وعادة العوام أن يمسحوا مقادير البيوت بالأقدام عند تأسيس جدرانها ، وأخذ النموذج لبسطها وفرشها وما شابه ذلك) .

(وللقدم المعتدلة الى القد المعتدل من نفس واحدة نسبة معلومة ذكروا أنها نسبة الواحد الى السبعة . فكما ان الأصبع الواحد نصف سدس مقياسه كذلك القدم سبع مقياسها ، والأقسام السباعية لذلك سميت أقداما) .

(وكذلك قال صاحب رسائل اخوان الصفا ان طول القامة ثلاثة أشبار بشبرها مع تفاصيل بعدها لسائر الأعضاء مبنية على الجهالات ، فان كلامهم فى غاية الرقاعة ...) .

٨ ـ فى نقل أنواع الظلال بعضها الى بعض

يقول البيرونى :

(أنواع الأظلال بحسب أجزاء مقاييسها أربعة هى : المقدرة بالأجزاء ، وبالأصابع ، وبالأقدام الصحاح ، والمنكسرة ...) .

(وان أردنا تحويل الأقدام السباعية الى الأصابع ضربناها فى اثنى عشر وقسمنا المبلغ على سبعة ، أو نصفنا الأقدام وزدنا على نصفها سدسه بالضرب فى السبعة والقسمة على ستة ، أو بالضرب فى السبعة ثم فى عشر دقائق ، وان شئنا أضفنا عدد الأقدام وألقينا من ضعفها سبعة بالضرب فى ستة والقسمة على سبعة) .

ويسهب البيرونى بعد ذلك فى شرح حساب الأظلال وكيفية أخذها ، واثبات أنواع الأظلال فى الاسطرلاب ، واثبات ظلم السلم فى الاسطرلاب ، والظلال المقيسة على السطوح المائلة أو على غيرها.

٩ ـ ٢٤

وعندما يجيء الحديث على (معرفة ظل نصف النهار فى كل يوم مفروض) نجده يقول :

(اذا كان اليوم مفروضا فلابد من أن يكون موضع الشمس لنصف نهاره معلوما ، ثم يتوسط فيما بين ميلهـــا وبين المطلوب معرفة ارتفاع نصف النهار . فالميل الجنوبى غير متفق بالشرائط، وانما بالفصل بينه وبين تمام عرض البلد الذى يساوى ارتفـاع نصف نهار رأسى الحمل والميزان فيه هو ارتفاع الشمس نصف النهار فى ذلك اليوم من جهة الجنوب .

واما الميل الشمالى فلأنه مقيس الى عرض البلد ينقسم الى ثلاثة أقسام أحدها القاصر عن عرض البلد ، ويكون مجموعه الى تمام عرض البلد هو ارتفاع نصف النهار من جهة الجنوب ...)

وقد جاء فى زيج أبى عاصم عصـــام مولى خالد بن برمك : (خذ لكل جزء من الميل الشمالى ثلاث عشر دقيقة وثلثى دقيقة ، فأنقص ذلك من ظل الحمل فى بلدك فيتبقى ظل نصف النهـــار يومئذ . وجدد لكل واحد جزءا من الميل الجنوبى خمس وعشرين دقيقة وزد ذلك على ظل الحمل فى بلدك فيجتمع ظل نصف النهار).

وفى موضوع (ظل اعتدال فى كل بلد) يقول :

(ظل الاعتدال هو ظل نصف النهار اذا كانت الشمس فى أول برج الحمل وأول برج الميزان ، فهو اذن أحد ظلال أنصاف النهار مشروطا له عدم الميل ، واذا كان كذلك كان ظل تمام عرض البلد هو ظل الاستواء) .

ويمضى البيرونى فى حديثه العلمى الشائق حتى يصـل الى موضوع (مقادير النهار والليل وفصول المطالع) فيقول :

(معلوم عند المحيط بهيئة العالم ان ليس للتباعد فى الطول بين الشرق والغرب أثر غير اختلاف الطلوع والغروب على نسبة ذلك التباعد ، وأن سائر التغاير الكائنة فى سعة المشارق والمغـارب وتفاوت ارتفاع أنصاف النهار والظل واختلاف النهـــار والليل

وأمثـــال ذلك هى من لوازم التبـــاعد فى العرض بين الشمال والجنوب .

وكل واحد من الأمم يقصد فى تحديد المواضع غير ما يقصده الآخر ، فمنهم من يحدها بارتفاع قطب الشمال المساوى للعرض ، ومنهم من يحدها بساعات النهار الأطول فيها كما أسس بقسمة الأقاليم . ومنهم من يذهب فيها الى الفراسخ وسائر المقـادير التى يمسح بها المسافات . ومنهم من يذكر عندها ظل الحمل ، وهو ظل نصف نهار يوم الاستواء التاسع لتمـام العرض ، لأن النهار طول السنة فى الموضـع الواحـد مختلف مع ليله بسبب المطالع كاختلاف ظل نصف النهار فيه . وعلى هذا الباب عمـل الهند لاستعمالهم الظل فى تحديد الأوقات) .

ثم يتطرق البيرونى الى بحث (معـرفة الماضى والباقى من النهار بالظل) فيقول :

(انما يتوصل الى الماضى من النهار بوساطة الجيوب ، سواء كان القياس بالظل أو كان بالارتفاع . واذا استخرجت الجيوب استغنى عن الأظلال ...) .

وقال برهركويت فى المقالة الثالثة عشرة من براهم سدهانده : (جر المقياس على مايزيد وقدر الظل بها ، وزد عليـه واحدا من أحاده ، واقسم على المبلغ دقائق مقدار نصف النهار فتخرج دقائق الماضى أو الباقى . وفى عكسه قسم دقائق نصف النهار على دقائق الماضى أو الباقى ونقص مما خرج واحد فيبقى الظل) .

ولا ينطبق هذا القول تماما على الواقع وهو تقريبى للتساهل كما يقول البيرونى . ولقد نظمت بعـد زيجات الهنـد فى أبيات حلها هو :

(يزاد على الظل الموجود اثنا عشر ابدا ، ويلقى من المبلغ ظل

نصف النهار ، ويقسم على الباقى اثنان وسبعون أصلا لا يتغير فتخرج الساعات الماضية قبل الزوال من أول النهار أو الباقية بعده الى آخر النهار ونسبته) .

ومن هذه الأبيات مثلا قول محمد بن ابراهيم الفزارى :

فان أردت ما مضى وما بقى
من النهار بالحساب الأوفق
فاعمل هداك الله بالترفق .

عودا وقدره لحسن القـــدر
ستا وستا واستعن بالصبر
وطوله قدرا كقدر الشبر .

فانصبه نصبا فى مكان مستو
ثم انظر الظل الى ما ينتهى
فاقـــدره بالعـــود ... (١)

فما بلغ ذاك من التعـــديد
ومن حســـاب ظلك الموجود
فزد عليه مثـــل ظل العود .

والق منـــه ظل نصف يومكا
واحص ذاك كـــله يهمـــكا
فان فى ذاك كمـــال أمركا .

فما تبقى فاقسم عليه وهنـــا
كاثنين مع سبعين حتى يفنا
هذا لعمرى واضح فى المعنى .

---

(١) هنا خوم فى الأصل .

فافهم اذا قسمت باب المخرج
فتلك ساعات صحاح المدرج

من الحساب المستقيم المنهج.

وهى ان كان النهـــار مقبلا
فقـــد مضـــين أولا فأولا

حتى يمر النصف كلا كملا .

وهو ان كان النهـــار مدبرا
فقـــد بقين آخـــرا فآخر

الى غروب الشمس حتى لا ترى .

ويقول البيرونى فى السمت ومطالعه :

(الارتفاع والظل والسمت يقترن فى الوقت الواحد حتى يصير بكل واحد منها معلوما محدودا . فالظل بمقداره مؤد الى معرفة الارتفاع ، ويوضعه ذلك على السمت ، لأنه على فصل المشترك لسطحى الأفق ودائرة الارتفاع التى تجد موقعها من الأفق كمية السمت . وكما ان الوقت من النهار يصير معلوما بالارتفاع كذلك يصير معلوما بالسمت) .

٢٥ ــ فى حكاية آراء الأئمة
فى أوقات الصلوة وما يضطر اليه فى تحقيقها

تحت هذا العنوان يقول البيرونى :

(الشمس علم المواقيت ، ولأن الحرنانيين والهند والمجوس وكل من عظم الأنوار جعلوا أوقات طلوعها وغروبهـا وتوسط السماء

أوقاتا للسجود والعبادة ، اذ طلوعها هو وقودها ، وتوسطها السماء هو كمالها ، وغروبها وداعها . وكلهم على ملل لم يشهد الاسلام بصحتها وقتا فى مواضى الأزمان ، فان الصلوة فى الأوقات الثلاثة المذكورة حرمت علينا للتمييز عنهم . وقيل ان الشمس تطلع بين قرنى الشيطان بمعنى أن أصحابه يعبدون الشمس وقتئذ ، فكأنه يطلعها عليهم لاغوائهم ... والقرون هى النواحى، وتضاف الى الشمس ، فيقال طلع قرن من قرونها ، ورأسها ...

فأما تجديد أوقاتها من جهة الآثار فقد ورد الخبر فيها عن النبى صلى الله عليه وسلم (ان جبريل أتانى عند باب الكعبة مرتين فصلى بى الظهر حين كان الفىء مثل قيد الشراك ، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شىء مثله ، ثم صلى المغرب حين وقعت الشمس، وأفطر الصيام ، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم صلى الصبح حين طلع الفجر وحرم الطعام على الصائم) .

(وفى اليوم الثانى صلى بى الظهر حين كان ظل كل شىء مثله كوقت العصر بالأمس ، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شىء مثليه ، ثم صلى المغرب لوقتها بالأمس ، ثم صلى العشاء الآخرة عندما ذهب ثلث الليل والصبح عندما أسفر) وقال ان الصلوة فيما بينهما .

وذهب قوم فى الظهر الى أنه سمى لاستواء الشمس على ظهر القبة ، وان زوالها عنه كذهابها الى السجود لله تعالى ولذلك صار وقتا للصلاة ، وفى العصر انه لانعصار الشمس من محدودب القبة وحصولها فى الانحطاط على موضع الركوع) .

ويفيض البيرونى بعد ذلك أيما افاضة فيما ذهبت اليه مذاهب المسلمين من حيث أوقات أو ساعات تحريم الصلاة وأوقات الكراهة . ويقول : (وصلوات المجوس ثلاث كما قلنا على استقبال الشمس ، ويصلون للقمر فى كل شهر مرة وعند النار للنار) .

تحدث البيرونى فى هذه الأبواب عن الموضــوعات الآتية التى نكتفى بذكر عناوينها كما وردت فى رسالته :

(ا) فى اثبات خطوط أوقات الصلوات والساعات على الآلات .
(ب) فى استعمال الظل فى الشكل القطاع وحساب علم الهيئة .
(جـ) فى معرفة الأبعاد الأرضية وأعمدة الجبال والظلال (انظر أيضا قاعدة البيرونى) .
(د) فى الأبعاد السماوية التى ترجع فيها الى الظلال .
(هـ) فى ذكر أشياء تتصل بالظل لم تشبه لما تقدم .

(جـ) تمهيد المستقر لتحقيق معنى الممر

قال أبو الريحان رحمه الله :

(الممر فى اللغة مشتق من الاجتياز ، يقع على نفس الفعل وعلى المكان الذى يوجد فيه من الفاعل ، فربما حمل على المرور نفسه ، وربما حمل على موضع المرور ، والى كليهما يذهب المنجمون فى استعماله ثم ينفردون بايقاعه على معنى فى صـــناعتهم يسمونه خارجا عن قانون للغة . واذ الأثير جرم ذو ثلاثة أبعاد والطول من بينها طول من العرض فى التعارف ، لكن الدائرة العظمى على الكرة تكون أطول مسافاتها المنتظمة ، فالطول فيها اذن هو منطقـــة حركتها والعرض هو المعترض على الطول ...) .

وفى ذكر الممر الطولى (الشرق ــ الغرب) يقول :

(ومن أجل ان الحركات البسيطة الأولى فى السماء اثنتان : غربية وشرقية ، والممر فى الكواكب قليل الاتصال بالغربية منهما ، فليس يمر بهما كوكب على آخر ، وانما يقال ان الكوكب يمر بهما على موضـــع كوكب آخـــر ، أو يجرى على سمته وسفنه ، أو منحرفا عنه نحو يساره أو يمينه ، فان وافيا معـا احـدى

دائرتى الأفق وفلك نصف النهار . وهما مختلفا الميل عن معدل النهار قيل فى الأفق انهما يطلعان معا أو يغربان معا ، وقيل فى فلك نصف النهار أنهما يتوسطان السماء معا . وان كانا متفقى الميل فى المقدار والجهة لم يكن بد من تغاير وقت طلوعيهما ، وغروبيهما، وبوسطيهما السماء فى جميع الأوضاع ماخلا الاقترانى اذا كانا فيه مع ماذكرناه مقترنين . وذلك القران يوجب اتحادهما فى المنظر ، وانكساف أعلاهما بالأسفل ، وهو وضع يقل كونه ويعز وجوده) .

وفى ذكر الممر العرضى (الشمال ـ الجنوب) يقول :

(فنقول أولا فى الممر العرضى ان معتقد القوم فى ناحية الشمال انه العلوم بالاطلاق ، وان لم ينح التحقيق تخصصها بذلك واطلاقه لها الا فى الأرض بسبب العمارة فيها . فأما محيط الكرة العالم فانه بأسرها علو من جميع الجهات ، والسماء سقف على الأرض مرفوع ، فانه نقطة منها فرضت سمتا لرؤوس أهل مسكن كانت بالاضافة اليهم أعلا علو ، وباقى الكرة منحط عنها بالاضافة ، ولكن ناحية الشمال مخصوصة بالعمارة الأنسية وسموت رؤوس عمارها فيها ، والشمس والكواكب ترتفع اليها وتنحدر عنها ، فلذلك جعلوه علوا بالوضع ، وصيروا الكواكب الشمالية العرض مستعليا على العديم العرض والجنوبية ، وذا العرض الأكثر فى الشمال على ذى العرض الأقل فيه ، وعديم العرض مستعليا على ذى العرض الجنوبى ، وذا العرض الأقل فى الجنوب مستعليا على ذى العرض الأكثر فيه ...)

وللهند فى الاستعلاء رأى وان لم يذكروا فيه الممر ، وذلك ان أصولهم فيه موافقة لما حكيناه الا فى الزهرة فانها فى الجنوب عندهم أقوى منها فى الشمال ، فاستعلاؤها اذن على خلافه فى سائر الكواكب ...

ومعظم الرسالة فى أحكام التنجيم ولا داعى للخوض فيها أكثر من ذلك .

(د) فى راشيكات الهند

يقول البيرونى :

(النسبة فيما بين المقادير المتجانسة هى صورة من صور الاضافات تحصل لها من جهة الكمية فيعرف بها أحدهما من الآخر ان كان غير معلوم .

... قال اقليدس ان التناسب أقل مايكون فى ثلاثة حدود ، فتكون نسبة الأول الى الثانى مساوية نسبة الثانى الى الثالث ، أو أعظم منها أو أصغر ، ان كانت النسبتان فى مقادير متمايزة كان أقل عدتها أربعة ، لأنها انما تحصل فى الثلاثة عند تساوى الثانى والثالث ، وتنقل الى الأربعة عند تكرر الثانى ...) .

ويضرب لنا البيرونى مثالا لنسبة مؤلفة فيقول :

ان عشرة دراهم ربحت فى الشهرين خمسة دراهم ، فالثمانية فى ثلاثة أشهر كم تربح ؟

١٠	٨
٢	٣
٥	

شكل (٣)

وهم يضعونها كما فى هذه الصورة ، ومقدار النسبة المؤلفة أبدا أسفل ، وهى الدراهم الحاصلة من اشتباك رأس المال بالمدة. ولاستخراج المجهول ينقلون الخمسة الى البيت الفارغ ويضربونه فى الثلاثة الحاصل ، ثم فى الثمانية ، فيكون مائة وعشرين ويحفظونه ، ثم يضربون الاثنين فى العشرة فيكون عشرين ، ويقسمون المحفوظ عليه فتخرج ستة وهى ربح الثمانية الدراهم فى ثلاثة أشهر . وانما صار ذلك كذلك لأن الخمسة هو الأول ، والمطلوب هو الثانى ، والعشرة هو الثالث ، والثمانية هو الرابع ، والاثنان هو الخامس ، والثلاثة هو السادس .

مثال آخر :

حائط طوله عشرة أذرع وعرضه ثلاثة وسمكه ثمانية بالذراع المشهور مرتين عمل ستة رجال بأربعين درهما ، ونريد أن نبنى الحائط الآخر فى طول خمسة عشر وعرض أربعة وسمك سبعة بالذراع المشهور ثلاث مرات فبكم يعمله التسعة النفر ؟

١٠	١٥
٣	٤
٨	٧
٢	٣
٦	٩
٤٠	٦٠

شكل (٤)

ونترك للقارىء فرصة الاستمتاع بحل هذه المسألة بنفس الطريقة . وهكذا يمكن أن تتعدد النسب الى ماشاء الله .

بحسابنا الحديث نقول :

حجم الحائط الأول = ١٠ × ٣ × ٨ × ٢ = ٤٨٠ ذراعا مكعبا ، وحجم الحائط الثانى = ١٥ × ٧ × ٤ × ٣ = ٧٢٠ ذراعا مكعبا .

وعمل فرد واحد = $\frac{٤٨٠}{٦}$ = ٨٠ ذراعا مكعبا ،

واذن فأجر الفرد = $\frac{٤٠}{٦}$ درهم

والجدار الثانى يتطلب $\frac{٧٢٠}{٨٠}$ = ٩ أفراد ، ويكون أجرهم ٩ × $\frac{٤٠}{٦}$ = ٦٠ درهما .

الفصل الخامس

تحديد نهايات الأماكن

أشرنا فى تاريخ حياة البيرونى الى أنه فى أواخر عام ٤٠٧ هجرية قام السلطان الغزنوى محمود بن سبستكين بغزو خوارزم واحتلالها، ثم أخذ البيرونى وطائفة من العلماء أسرى الى مدينة غزنة عاصمة الدولة الغزنوية الجديدة ، وهناك حددت اقامة هؤلاء العلماء وقيدت حرياتهم . ورغم ذلك ، استمر البيرونى فى نشاطه العلمى ، فما أن جاء عام ٤٠٩ هـ حتى كان قد أتم حوالى ثلث كتاب «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » ، اذ قال فى بداية الفصل الثالث :

« اننى يوم كتابتى هذا الفصل وهو يوم الثلاثاء غرة جمادى الآخرة سنة تسع وأربعمائة للهجرة .. » .

وصلت الينا نسخة واحدة من هذا الكتاب وهى موجودة حاليا فى اسطنبول بمكتبة السلطان فاتح ، ويحتوى هذا المخطوط على ٣٤٠ صفحة .. ويعتقد بعض المستشرقين أن هذا المخطوط مكتوب بخط البيرونى نفسه ، وكان أساس هذه الفكرة ما جاء فى ختام المخطوط :

« تم كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن وفرغت منـــه بغزنة لسبع بقين من رجب ســـنة ست عشرة وأربعمائة » ..

ولكن من المحتمل أن تكون هذه العبارة للناسخ لا للمؤلف .. ويستدل عالم تركى حقق هذا الكتاب على أنه ليس بخط البيرونى ، من وجود أخطاء كثيرة فى النحو .. ولكن اذا كان ذلك مغفورا لعلماء عصرنا ، فالأولى أن يقع فيها البيرونى الذى كانت لغته الأصلية هى الخوارزمية .

وقد جاء المستشرق السوفييتى الدكتور ب.بولجاكوف بدلائل مقنعة فى هذا الصدد ، منها كثرة الأخطاء فى الأشكال الهندسية ، والأرقام المكتوبة بحساب الجمل .. وقد كان البيرونى يشكو مرارا من أخطاء الناسخين للكتب العلمية دون دراية لما فيها ، اذ نجده مثلا يشير فى الفصل الخاص بمعرفة عرض البلد فى صفحة ١٣٣ من المخطوط :

« وما أظن الاختلاف واقعا فى كمية عروض الأقاليم الا من جهة الاختلاف فى كمية الميل الأعظم ، ثم الاضطراب فى بسط الجيوب لأجزاء الدائرة بسبب طريقى الروم والهند فيه ، ثم ما يلحق جداولها فى النسخ من الفساد الذى يفسد له ما يحسب بها » .

وثمة دليل آخر ساقه الدكتور بولجاكوف وهو وجود تكميلات عديدة فى هامش المخطوط وبين السطور تحتوى على الجمل التى سقطت سهوا من الناسخ ، ومعظمها يقع بين كلمة مكررة مرتين .. وهذا النوع من الأخطاء شائع فى أعمال النسخ ، اذ يظن الناسخ بعد نقل احدى الكلمات أنه توقف عند الكلمة الثانية المشابهة لها فيسقط ما بينهما سهوا .

يشتمل الكتاب على عدة قواعد وتعليمات فى مسائل علم الفلك التطبيقى ، فنجد فى الفصل الأول تفصيلا للطرق المختلفة لاستخراج عرض المكان دون الاستعانة بزاوية الميل الأعظم التى تقع بين مستوى

خط الاستواء ومستوى مسار الأرض حول الشمس .. ويتناول الفصل الثانى موضوع ايجاد الميل الأعظم دون الاستعانة بعرض المكان .. وهنا يجب أن نتوقف لحظة لنرى البيرونى العالم ، بعد أن أورد وناقش أعمال السابقين والمعاصرين فى هذا الصدد يقول فى صفحة ١٠١ :

« ولهذا يجب أن يتيقظ الراصد ، ويديم فلى أعماله واتهام نفسه ، ويقال العجب بها ، ويزيد فى الاجتهاد ولا يسأم .. وأما أنا فعلى حرصى الشديد على هذه المقاصد ، وايثارى اياها على سائر المطالب ، كأنى ممنوع عن اثارتها ، غير منتفع بالامكان والاقتدار فيها . وقد كنت أزمعت تولى الأرصاد فى ســـــنتى أربع وخمس وثمانين وثلاثمائة للهجرة ، وهيأت لها دائرة قطرها خمس عشرة ذراعا مع سائر ما تبعه ، ولم أتمكن الا من رصد غاية الارتفـاع بقرية على غربى جيحون وجنوب مدينة خوارزم .. وردف هذا اليوم من التشاويش بين كبيرى خوارزم ما أحوج الى تعطيل ذلك والتحصن ، ثم الاستئمان والاغتراب عن الوطن . ولم يستقر بى بعدها القرار بضع سنين ، حتى سمح الزمان باجتماع الشمل ، فأكرهت من أحوال الدنيا على ما حسدنى عليه الجاهل ، وأشفق على فيها الشفيق العاقل .. ثم تفرغت للرصد قليل تفرغ فى أيام الأمير الشهيد أبى العباس خوارزم شاه أنار الله برهانه.. وحصلت أعظم الارتفاع مع الارتفاع الذى لا سمت له ، على ما تقدم ذكره فى استخراج عرض البلد ، ولم يحل الحول الا مع استئصال واجتياح لم يفطن اهما للاشتغال بالروح مدة مديدة ، أسفر عقباها عن أمن لا يتسع للعود الى الحال الأولى ، والاشتغال بما هو بمثلى أولى» .

يحث البيرونى العلماء ـ وخاصـــة القائمين بالدراســـات العملية ـ على اليقظة والدقة ، وألا يعتبر النتائج التى توصل اليها نهائية بل يجب أن يشك فى صحتها ودقتها ، ويعيد عمله مرارا وتكرارا حتى يقطع الشك باليقين دون أن يكل أو يسأم ، وذلك

ديدن العالم المثالى الذى يريد أن يصـــل الى جـــوهر العلم دون القشور .

وها هو ذا ، بعد أن رأى تضارب النتائج بين العلماء ، يقرر القيام بالأرصاد بنفسه فيعد الجهاز اللازم لذلك ، ولكنه لم يتمكن الا من اتمام نصف الأرصاد المطلوبة ثم ينشب القتال بين حكام خوارزم ويقتل خوارزم شاه أبو العباس الذى كان البيرونى من أنصاره ، فيضطر الى الاختباء ثم الهرب والاغتراب حوالى خمسة عشر عاما حتى تغيرت الأحوال فعـــاد الى وطنه .. ولكن هل أنســـاه ذلك ماكان يحاول اثباته منذ خمسة عشر عاما ؟ هل شغلته المهام السياسية التى عهد اليه خوارزم شاه الجديد أبو العباس مأمون ابن مأمون عما بدأه منذ فترة طويلة ؟ .. كلا ، لم ينس البيرونى ذلك ، بل أكمل أرصاده التى بدأها عام ٣٨٥ هجرية . تلك هى الروح العلمية الحقة ، وذلك ـ دون شك ـ هو حب العالم للعلم لا للمال ، وهو أدل على ذلك من قوله يصف المهام السياسية التى وكلت اليه :

« فأكرهت من أحوال الدنيا على ماحسدنى عليه الجاهل ، وأشفق على فيها الشفيق العاقل » .

منصب سياسى كبير يثير اللعاب ، حتى ان الكثيرين حسدوه عليه .. ومع ذلك يصفهم بالجهل لأنهم يزنون الأمور من الناحية المادية ولا يهمهم خسارة العلم لأحد رجالاته .

وكان البيرونى يدرس علوم الحضارات الأخرى مقرونة بالبحث الدقيق ، والاستقصاء حتى يختار الصالح منها ويترك الغث الذى لا يفيد العلم ، فنجده يسجل فى صفحة ١٠٤ العبارة التالية عن قيمة زاوية الميل الأعظم :

« والذى نقل من الهند فى زيجهم المعروف بالسند هند ، من مقدار الميل فهو أربعة وعشرون جزءا سواء . ومن طالع أعمالهم وجدها من البعد عن التحقيق بحيث لا يثق فى أرصادهم بادعاء

تدقيق.. ولكن القوم بسبب نزوح ديارهم وشدة كتمانهم ، وضنهم على الشيء النزر يراحون رائحته ، واعتقاد العامة فيهم الحكمة ، مع خلوهم عنها ، وسهولة تلك الأعمال بالقياس الى المحققة ، قد كثر متعصوبهم الذين لا يلتفون الى عيان ، ولا يكترثون ببرهان ، ولا يبالون بالارتكاب فادعوا لهم .

ومنهم محمد بن على المكى ، على ما ذكر فى المدخل الى أحكام النجوم فى الميل ، أن هذا التفاوت انما بسبب أن أرصادهم مقيسة الى مركز العالم ، ورصد غيرهم مقيس الى بسيط الأرض . وبه اقتصر أولئك السامعون من غير سبك له ولا تخليص .. ويجب أن أعير هذا الكلام بجميع وجوهه ، فانى لا آبى قبول الحق من أى معدن وجـــدته » .

فالقيمة التى وجدها علماء الهند لزاوية الميل الأعظم ليست دقيقة ، ولا تطابق ما وجده باقى العلماء ومنهم البيرونى .. ولكن البعض نقل تلك القيمة عن الهند واستخدمها فى حساباته دون تحقيق أو برهان ودون استقصـــاء أو بحث ، بل تعصبا لهم لاعتقادهم الحكمة فى علماء الهند فأخذوا أعمالهم قضية مسلما بها .. ويضرب البيرونى لذلك مثلا ، محمد بن على المكى الذى فسر اختلاف نتائجهم عن غيرهم بأنها منسوبة الى مركز الأرض لا الى سطحها ، واستخدم البيرونى بعد ذلك النظريات الهندسية ليثبت عدم صحة هذا الادعاء .

وانتقد البيرونى حضارة الهند فوصف علمـاءها بخلوهم من الحكمة وعدم الثقة فى أرصادهم ، كما وجد أعمالهم تنحرف دائما نحو الخرافات وان لم يبخسهم حقهم فى النواحى العلمية الجليلة .. وهو يؤكد ذلك فى كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » فيقول :

« لم يك للهند أمثالهم ممن يهذب العلوم ، فلا تكاد تجد لذلك لهم خاص كلام الا فى غاية الاضطراب وسوء النظام ومشوبا فى آخره

بخرافات العوام ... انى أشبه ما فى كتبهم من الحساب ونوع التعاليم الا بصدف مخلوط بخزف أو بدر ممزوج ببعر أو بمهى مقطوب بحصى ، والجنسان عندهم سيان » .

كان البيرونى أسيرا فى قبضة السلطان الغزنوى محمود بن سبستكين عام ٤٠٩ هجرية فى قرية تسمى جيفور بالقرب من كابل، ومع ذلك داوم الأرصاد الفلكية غير عابىء بما يكتنفه من مضايقات، وما يلاقيه من صعوبات (صفحة ١١٢ من المخطوط) :

« مثاله أنى يوم كتابتى هذا الفصل ، وهو يوم الثلاثاء غرة جمادى الآخرة سنة تسع وأربعمائة للهجرة ، كنت بجيفور قرية الى جنب كابل ، وقد حملنى شدة الحرص على رصد عروض هذه المواضع ، وأنا ممتحن بما أظن أن نوحا ولوطا عليهما السلام لم يمتحنا بمثله ، وراج أن أكون ثالثهما فى نيل رحمة الله والغياث بمنه .. ولم أتمكن من آلة للارتفاع ، وأعوزنى وجود شىء من المواد التى منها تهيأ ، فخططت على ظهر تخت الحساب قوسا من دائرة انقسمت أجزاؤها بستة أقسام ، يكون كل واحد منها عشر دقائق ، ووزنتها فى التعليق بالشواقيل .. » .

لم يكن فى متناول يده من المواد ما يصنع منها آلة للقياس ، فاضطر الى استخدام لوحة الحسابات ، بعد أن رسم عليها قوسا ، مدرجة الى درجات وقسم كل درجة الى ستة أقسام . انه يضرب لنا مثلا فى البحث العلمى اذا عز وجود الأجهزة المطلوبة ، فالعالم الأصيل لا تثنيه الصعوبات عن عزمه مهما كان نوعها ، ولا تفت الظروف القاسية فى عضده حتى ولو كان أسيرا مقيد الحرية .

والروح العلمية عند البيرونى ، وحبه للبحث والاستقصاء ، وعدم ثقته فيما ترويه الكتب من أرصاد أو قياسات الا بعد تحقيقها بنفسه خشية وجود أخطاء من الناسخين ، يدعمها كذلك ما ورد فى صفحة ١٣٢ خلال مناقشة عروض البلدان :

« فهذا ما تحتمله هذه الوجوه ، ويتصل بها ذكر الأقاليم وهو ضرورى فى مقصدنا ، لأنك قلما تجد نسختين متفقتين على كمية عروض الأقاليم ، حتى صارت الروايات فيما تنسب الى المذكورين نسبة الآراء أو المذاهب الى المجتهدين فيها ، وليست أشياء موجودة بالرصد ، حتى يحتمل فيها الخلاف ، ولا مرتآة بالنظر والتفكر حتى يمكن تشعب الطرق فيها ، وانما هى مبنية على أصل متفق عليه . وما أظن الاختلاف واقعا فى كمية عروض الأقاليم الا من جهة الاختلاف فى كمية الميل الأعظم ، ثم الاضطراب فى بسط الجيوب لأجزاء الدائرة بسبب طريقى الروم والهند فيه ، ثم ما يلحق جداولها فى النسخ من الفساد الذى يفسد له ما يحسب بهـــا » .

ويستطرد البيرونى بعد ذلك ، فيأتى بنبذة جغرافية تاريخية عن تقسيم المعمورة مع اشارة عابرة عن طباع السكان فيقول :

« ان المعمورة كانت قسمت من جهة السياسة والبسطة من الملك على سبعة أجزاء قسمة مستديرة ، كما تدور الدوائر الست بالسابعة اذا كانت متساوية . والسبب فيها أن كبار الملوك كانوا المستوطنين ايرانشهر التى هى العراق وفارس والجبال وخراسان، فمنهم من استولى فى أولية الخليقة قبل انتشار الانس فى الأقطار على جميع هذه الممالك ، ولابد لأمثالهم من نزول الواسطة (أى الدائرة الوسطى) لتستوى لهم المقاصد ، ويســهل عليهم تناول مايرومونه فيها .. ومنهم من لم يلها ، وخاصة فيما دون الاسكندر من التاريخ ، ولكنه كان يهاب فيها ، فيتقى بالأتاوة ويستعطف بصنوف القرب .. ولا اتصال لهذه القسمة بشىء من نظام الأحوال الطبيعية ولا بقضايا علم الهيئة ، انما هى بحسب الممالك المتغايرة باختلاف صور الانس فيها أو أخلاقهم وأفعالهم ، أو ألسنهم وأديانهم أو بحسب من يحوزهم قهرا .

فأما أهــل المغرب من اليونانيين وغيرهم ، فللزومهم فى جميع

ما زاولوه أقصر الطرق وأقربها من الحقيقة ، نظروا على الامتداد والسلوك على موازاة ما بين المشرق والمغرب ، فلم يجدوا فيه اختلافا الا ما عسى اتفق من جهة وضع الجبال أو البحار ومهاب الرياح لهما . وتأملوا الحال عند السلوك الى قطب الشمال ومنه ، فوجدوا الاختلاف من جهة الأهوية فى حرها وبردها ، والتغايير فى انحراف الشمس والكواكب عن المسامته وارتفاع القطب وما حوله من النجوم .. فقسموا المعمورة بسبعة أقاليم على حسب أظهر الاختلافات ، وهو مابين النهار والليل ، بخطوط متوازية تأخذ من أقصى العمارة فى مشارقها الى منتهاها فى مغاربها .. الى أن كان وسط السابع حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة ، وذلك أن سكان ما وراء ذلك الموضع قليل وكالمتوحشين ، فان أقصى ما يوجد لهم من مجتمع بلد يوره ، ويسلك اليه من ايسوا فى اثنى عشرة يوما ، والى ايسوا من بلغار (كانت هذه المدينة على الشاطىء الشرقى لنهر فولجا عند تقاطعه مع نهر بيلايا) فى عشرين يوما على زلاقات من خشب ، يحملون فيها الزاد على سطوح الثلوج ويجرونها اما هم ، واما كلابهم ، وعلى أخرى من عظام يشدونها على الأقدام ، يقطعون بها المسافات الطويلة فى المدد القصيرة . وتكون متاجرة أهل يوره بوضع السلع ناحية والتنحى عنها ، لأجل توحشهم ونفارهم ، على مثل متاجرة سكان أرض لنك فى البحر بالقرنفل » .

ويتحدث البيرونى عن البحار والمحيطات ، فنجده يشير (صفحة ١٤٥) الى أن الأندلس وبلاد المغرب كانتا متصلتين بقنطرة من الصخور بناها هرقل للعبور عليها :

« فقد حكى أحد الفضلاء فى رسالة له الى حمزة بن الحسن الاصبهانى ، فى عجائب ما شاهده بالمغرب ، ذكر فيها أنه اجتاز فى مركب على الزقاق ، وهو المضيق الذى فيه يتصل بحر الشام بالبحر المحيط (مضيق جبل طارق) ، ويتراءى الساحلان من جهة الأندلس ومن جهة بلاد طنجة والسوس الأقصى ، ونظر فيه

الى الماء فأدرك من عمقه قنطرة من صخور معقودة طاقات ، وأن بعض من حضر زعم أنها من بناء الاسكندر ، فقال الأندلسيون : « تبا للاسكندر ، وهل تمكن من أرضهم حتى يعمل ذلك ؟ انما هو من هرقل القديم » . وما أظن معبرة هرقليس المذكورة فى كتاب: جاوغرافيا الا هذه . ولا شك أن القنطرة كانت بارزة عن الماء ، لأنها عملت للعبور عليها ، فلما علا الماء غمرها » .

وكان القدماء يعلمون بوجود المحيط الأطلسى غربا عند الأندلس وبلاد المغرب ، والمحيط الهادى شرقا عند الصين ثم ينحرف جنوبى الهند مارا ببلاد فارس وبلاد العرب ثم يمتد جنوبى خط الاستواء . ولكن لم يكن لديهم دليل عملى على اتصال المحيطات بعضها ببعض نظرا لعدم استكشاف النصف الجنوبى من قارة افريقيا ، الا أن بعض القرائن التى أشار اليها البيرونى كانت تشير الى وجود تلك الصلة :

« وأما البحر المحيط من جهة الشرق فيكثر ظلامه ويركد ، ويعظم الغرر فى ركوبه ، ويظن بهذين البحرين من غرب المعمورة وشرقها أنهما متباينان . ثم يتحدث عن راكبيهما ، وقد كسرت الريح مراكبهم ، ما يوهم التقاءهما . ثم ظهر فى زماننا هذا ما قوى هذا الوهم ، بل حققه . وذلك أنه وجد فى البحر المحيط بازاء اتصال بحر الشام به ، ألواح مراكب مخروزة ، وانما فى ذلك فى بحر الهند لكثرة المغناطيس فيه دون بحر المغرب ، لأن المراكب به تسمر ولا تخاط » .

ويستطرد البيرونى فى البحث عن منطقة الاتصال ، فيخرج من الحسبان منطقة البحر الأحمر وكذلك الاتصال عن طريق المناطق الشمالية المارة بالقطب ويستنتج أن :

« ما كل ممكن يكون ، بل اتصالهما فى جنوب المعمورة اقرب الى الوهم ، وخاصة فقد ذكر الحاكون عن اتصالهما ، ارتفاع الماء الشرقى على الغربى ، كما وجد عند التقدير المساحى ماء القلزم

عاليا على ما ينصب الى بحر الشام . ويجوز أن يكون هذا العلو بسبب مجىء ربو الماء الموجب للمد على موازاة القمر من جهة المشرق نحو المغرب مع علل أخر ، سأبحث عنها فى كتاب أفرده فى أمر المد والجزر ، ان أعان الله عليه بمنه » .

هنا تستوقفنا العبارة الأخيرة من تلك الفقرة .. فلم يدع نظرية الفرق بين ارتفاعى المياه فى المحيطين تمر مر الكرام ، بل أشار الى أحد الأسباب المحتملة وذكر أن هنالك أسبابا أخرى سيخصص لها قسما فى كتاب يؤلفه عن المد والجزر بعد بحثها ودراستها دراسة مستفيضة . تلك كانت طبيعته .. دراسة كل ما يقابله بالتفصيل واثباته فى حينه ، أو يخصص له كتابا آخر اذا ضاق المجال لتسجيله .

وتعالوا نلقى نظرة على أمنية أخرى من أمنياته العديدة ، فى موضوع خلط فيه الكثيرون بين المذهبين الشرقى والغربى ، وهو موضوع أطوال البلدان . فقد اتخذ أهل المشرق فى الصين والهند وفارس بداية الأطوال من ناحيتهم عند شاطىء المحيط الهادى ، بينما اتخذها الروم واليونانيون والمصريون من جزر كنارى قرب شاطىء الأطلنطى ، وقد اعتبر كلا المذهبين أن امتداد العمارة نصف دائرة أو ١٨٠° ، فلما حاول بعض العلماء العرب التوفيق بين المذهبين وقعوا فى أخطاء أثرت كثيرا على حساباتهم ، لأن نصف الدائرة من شاطىء المحيط الهادى لا تصل الى جزر كانارى كما أن العكس أيضا صحيح .. وقد حذر البيرونى العلماء من الوقوع فى تلك الأخطاء ، فقال فى صفحة ١٦٣ من المخطوط :

« ومن كانت له بصيرة بمصارفه لم يقدح فيها ما ذكرت من اختلاف المبادىء والنهايات المنسوبة الى المعمورة ، ولم يضر بأعماله شىء متى لم يغفل تأملها والقياس بينها . وأما من تناولها تقليدا ولم يف بمطالعة أحوالها مع اختلاط رأيى المشرقيين والمغربيين

معا فى جدول واحد ، فستؤديه أعماله ــ وخاصة الكسوفات ثم الشمسية منها ــ الى تخليط ظاهر . فانما يحتاج من الأطوال الى معرفة ما بين البلاد منه ، ونحن اذا حصلنا ذلك لم نحتج الى تلك النهايات والمبادىء ، بل ربما أمكننا تصحيحها منها ، لو ساعد الزمان بمثل ما ساعد بطليموس ومن تقدمه من الفضلاء الذين عنوا بهذا الشأن . وما أعز وجود مثل ذلك التوفيق ومنــــاه ، لما قدمت ذكره من أحوالى » .

يعتريه الأسى والحزن لأن اقامته شبه محددة ، فلا يمكنه الترحال من بلد لآخر كى يرصد أطوالها أو الفرق بينها حتى يمكنه تصحيح الجداول التى عليها تبنى الحسابات الفلكية .. ومع ذلك فهو لا يدع هذا الموضوع ، بل يتناوله بعد ذلك من الناحية النظرية وطرق الحسابات ثم يطبق ذلك عمليا فى المجال المحدود الذى عاش فيه ، ثم حاول جاهدا استنتاج أطوال المدن الكبرى فى العالم الخارجى مما رواه الثقاة عما بينها من مسافات .

ومن الطرق التى أشار اليها فى ايجاد الفرق بين طولى بلدين ، استخدام الكسوفات القمرية التى يمكن رؤيتها فى البلدين فى لحظة واحدة . بدأ الحديث بالاشارة الى العلامات أو الحوادث التى يمكن رؤيتها فى نفس الوقت فى البلدين ، واستبعد من بينها الظواهر الجوية كالبرق والشهب لأنها قريبة نسبيا من سطح الأرض ويصعب رؤيتها فى كثير من الأحيان فى المكانين معا نظرا لكروية الأرض ووجود الجبال والأوهاد :

« فأما الحوادث السماوية ، فالطلوع والغروب أولها .. وليس بمعلوم ، فانا الآن فى طلبه والبحث عن تحقيقه . ورؤية الأهلة كذلك متعلقة بالطلوع والغروب ، فلن ينتفع بها فى هذا المعنى لذلك ، ولما لا يعرفه الا من أحاط علما بأعمالها . وكسوفا النيرين ، أما الشمس فلما كان كسوفها غير عارض لذاتها بل للأبصار الناظرة اليها ، وكان

القمر الساتر اياها بعيدا عنها وقريبا من الناظرين ، ثم اختلفت مواضعهم ، فاختلف بذلك ما ادركوه من كمية الكسوف ، ومقادير أزمنته ونهايتها ، لم يعتمد فى هذا المبحث . وقصد كسوف القمر ، وكان انقطاع نور الشمس عنه بتوسط الأرض بينهما ، فعلم أنه أمر يعرض لذاته ، وأن من نظر اليه من المواضع المختلفة رآه على حقيقته وفى وقته ، فكان هو الأحق بالاعتماد ، واياه قصد أصحاب الصناعة فى تصحيح الأطوال ، الا أبا الفضل الهروى – وهو من الأفاضل المتقدمين فى صناعة النجوم – فقدسها فى الباب العاشر من المقالة الأولى من المدخل الصاحبى وقال : ان التوصل الى الأطوال من جهة الكسوفات الشمسية » .

ثم يفند بعد ذلك قول أبى الفضل الهروى ويثبت عدم صحته الا اذا كنا فى مركز الأرض ، ويشير الى صعوبة رؤية الكسوف الجزئى للشمس فى أغلب الأحيان بعكس الكسوف القمرى :

« فان التماس بين الظل والقمر وان لم يحس به ، فالقليل من التقاطع يرى ، وليس كالشمس ، فان البصر لا يقاوم شعاعها بل يتأثر منه تأثرا مؤذيا مؤلما . فاذا أثار الانسان بصره اليها اسمدر وتحير ، ولأجله يؤثر النظر الى خيالها فى الماء دونها ، فان فيه يستبين جرمها ويقل شعاعها ، على أن بصرى فسد بمثل هذا من رصد الكسوفات الشمسية فى حداثتى » .

نجد البيرونى هنا يشير الى حداثته فى بداية حياته الفلكية ، وكيف أن رصده للكسوفات الشمسية قد أضر بعينيه وآذاهما ، فأصيبتا بضعف شديد .. ولكن هل رده ذلك عن مواصلة البحث العلمى والأرصاد ؟ ان مؤلفاته العديدة ترد على هذا السؤال بالنفى . فما كان ليثنيه عن حبه للعلم أى عامل مهما كان .. حتى وهو يحتضر على فراش الموت .

ومن الموضوعات التى أولاها القدماء كثيرا من الاهتمام ، تعيين

حجم الأرض ، وكانت طريقتهم فى ذلك هى ايجاد طول قوس على سطح الأرض تقابل زاوية معينة عند مركزها أو العكس .. أى ايجاد الزاوية التى تقابل مسافة معينة على سطح الأرض . وهذه الطريقة الأخيرة اتبعها اراتوستينس عندما لاحظ أنه فى وقت معين من أوقات السنة تضىء أشعة الشمس قاع بئر فى مدينة أسوان مما يشير الى أنها تكون عمودية تماما على أسوان فى تلك اللحظة من التاريخ المعين. وعندئذ ذهب الى الاسكندرية ، وقام بقياس ارتفاع الشمس هناك عندما تكون عمودية على أسوان ، واستنتج من ذلك الزاوية بين المدينتين ، بينما المسافة بينهما معروفة من روايات المسافرين .

أما الطريقة الأولى فهى أكثر دقة لاعتمادها على النجم القطبى الذى يختلف ارتفاعه من مكان لآخر ، ولكنه ثابت الارتفاع فى مكان بعينه . فاذا قيست المسافة بين مكانين يختلف فيهما ارتفاع النجم بمقدار درجة واحدة ، كانت تلك المسافة هى المقابلة لدرجة واحدة عند مركز الأرض . وثمة من قاس المسافة بين مدينتين تقعان على نفس خط الطول ومعلوم عرضاهما ، فتكون المسافة المقاسة مقابلة لزاوية تساوى الفرق بين عرضى البلدين .

وقد قرأ البيرونى كعادته كل ما ذكر فى هذا الشأن وناقشه بالتفصيل ، ناقدا مختلف الروايات ومبينا جوانب الخطأ فيها :

« وقد نقل فى الكتب أن القدماء وجدوا بلدى الرقة وتدمر على خط واحد من خطوط أنصاف النهار ، وبينهما تسعون ميلا ، فعلم أن حصة الجزء الواحد من ذلك ستة وستون ميلا وثلثا ميل ، وذلك يوجب أن يكون ما بينهما فى العرض (٢١َ ٥١) . وقد قلنا : ان عرض الرقة (١َ ٣٦ْ) ، فعرض تدمر (٢٢َ ٣٧ْ) . ولكن الحكاية مضطربة لأن ما ذكر فيها من عرضى الموضعين غير مناسب للمقدار، فاحتمل أن يكون فاسدا فى النسخ ، ولهذا لم أستخرج منه الدور لقلة الثقة به . فقد جاء بهذه الحكاية محمد بن على المكى فى كتابه

فى الحجة على استدارة السماء والأرض ، وزعم أن عرض تدمر أربعة وثلاثون جزءا ، وعرض الرقة خمسة وثلاثون جزءا وثلث جزء .

وأما الفزارى فذكر فى زيجه ، أن دور الأرض عند الهند ستة آلاف وستمائة فرسخ ، على أن الفرسخ ستة عشر ألف ذراع . وأنه عند هرمس تسعة آلاف فرسخ ، على أن الفرسخ ستة عشر ألف ذراع . فتكون حصة الجزء الواحد من ثلثمائة وستين ـ بحسب قول الهند ـ من الفراسخ ثمانية عشر وثلث ، فان كان كل واحد منها ثلاثة أميال ، كانت للجزء الواحد خمسة وخمسون ميلا ، وكل ميل خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث . وبحسب قول هرمس خمسة وعشرين فرسخا ، تكون خمسة وسبعين ميلا ، كل واحد أربعة آلاف ذراع .

ثم زعم الفزارى أن بعض الحكماء قدر لكل جزء مائة ميل ، فصارت استدارة الأرض اثنى عشر ألف فرسخ .

وذكر أبو الفضل الهروى فى المدخل الصاحبى « ان آخر ما رصد من رصد المسير فى أيام المأمون هو مابين مدينة السلام وسر من رأى ، فانهما تحت دائرة واحدة من دوائر أنصاف النهار وبينهما فى العرض درجة واحدة ، وقد وجدوا الجزء الواحد من الفلك يحاذيه من الأرض ما مساحته بالأميال ٥٦⅔ ، على أن الميل أربعة آلاف ذراع بالسوداء .

وما أظن أبا الفضل فى هذا الا مجزفا غير متثبت ، فلم ينقل الينا خبر هذه المساحة كما نقل غيره ، على أن عرض سر من رأى باجماع القوم (١٢َ ٥٣٤) وعرض بغداد (٥٣٣) ومعها دقائق اما (٢٠َ) واما (٢٥َ) . وعمل حبش فى كتاب الأبعاد على الدقائق الأخيرة ، فيكون ما بين البلدين فى العرض اما (٥٢َ) واما (٤٧َ) ، وهذا تفاوت مع الجزء الواحد يجتمع لحصته من الأميال اذا ضوعف ثلثمائة وستين مرة ، مقدار يفرط بالنقصان ويجحف بالزيادة .

وأيضا فان هاتين المدينتين على شاطىء دجلة ، ودجلة لا تخترق ما بين الشمال والجنوب على استقامة خط نصف النهار ، بل على تأريب مركب من امتداد من الغرب الى الشرق . وأيضا فالذى بين البلدين من الفراسخ اذا عددناها مرحلة بعد أخرى ، وهى اثنان وعشرون ، تكون ستة وستين ميلا ، فكيف وجدت ستة وخمسين ميلا وثلثى ميل » .

هنا ينقد البيرونى رواية أبى الفضل الهروى عن رصد حجم الأرض أيام المأمون ، مفندا ما جاء بها بالبراهين والأدلة ، ثم يستطرد مسجلا حقيقة الرصد الذى قام به علماء المأمون :

« وانما رصد المأمون كان لما طالع من كتب اليونانيين حصة الجزء الواحد خمسمائة اسطاذيا ، وهو مقدار لهم كانوا يقدرون به المسافات ، ولم يجد عند المترجمين علما شافيا لمقداره بما يتعارف عليه . حينئذ أمر ـ على ما حكى حبش عن خالد المرورذى وجماعة من علماء الصناعة ، وحذاق الصناع من النجارين والصفارين ـ بعمل الآلات واختيار موضع لهذه المساحة . فاختير موضع من برية سنجار من حدود الموصل يبعد عن قصبتها تسعةعشر فرسخا وعن سر من رأى ثلاثة وأربعين فرسخا ، وارتضوا استواءها ، وحملوا الآلات اليها ، وعينوا منها موضعا رصدوا به ارتفاع الشمس نصف النهار .. ثم افترقوا منه فرقتين ، فتوجه خالد مع طائفة من المساح والصناع الى جهة القطب الشمالى ، وتوجه على بن عيسى الأسطرلابى وأحمد بن البحترى الذراع مع جماعة نحو القطب الجنوبى ، ورصدت كل طائفة منهما ارتفاع الشمس نصف النهار حتى وجدوه تغير جزءا واحدا سوى التغير الحادث من الميل . وكانوا يذرعون الطريق فى ذهابهم ، وينصبون السهام على طريقهم ، فلما عادوا اعتبروا المساحة ثانية . واجتمعت الطائفتان حيث افترقتا ، فوجدوا حصة الجزء الواحد من الأرض ستة وخمسين ميلا . وزعم (حبش) أنه سمع خالدا يملى ذلك

على يحيى بن أكثم القاضي فالتقطه منه سماعا . وهكذا حكاه أبو حامد الصغاني عن ثابت بن قرة . وحكى عن الفرغاني ثلثا ميل يتبع الأميال المذكورة .

وكذلك وجدت الحكايات كلها مطبقة على هذين الثلثين ، ولا يجوز أن أحمل ذلك على سقوطه من نسخة كتاب الأبعاد والأجرام ، لأن حبش استخرج من ذلك دور الأرض وقطرها وسائر الأبعاد ، واذا امتحنت وجدت حاصله من الستة والخمسين ميلا فقط للجزء الحاصل . بل أولى من ذلك أن يظن بالروايتين صدور عن الفرقتين ، وهو موضع تحير باعث على تجديد الامتحان والرصد . ومن لي به ؟ وهو محتاج الى اقتدار بسبب الانبساط في المكان ، والاحتراس من غوائل المنتشرين فيه . وكنت اخترت له البقاع التي بين دهستان المصاقب لجرجان ، وبين ديار الأتراك الغزية ، فلم تساعد المقادير ثم الهمم المسترفدة على ذلك » .

قرأ البيروني جميع الروايات التي تسرد حجم الأرض أو طول محيطها ، وأخذ يقارن بينها ويتثبت من صحتها فلم يجد العلماء متفقين على رأي .. حتى أنباء العمل المشترك الذي قام به العلماء أيام المأمون في برية سنجار أوردت نتائج مختلفة بعثت البيروني على التحير والرغبة في تجديد الرصد والقياس . ولكنه يتساءل في أسف عن السبيل الى ذلك ، وهو في حاجة الى امكانيات ضخمة بسبب طول المسافة وأخطار الطريق . ومع ذلك لم يطرح الموضوع جانبا ، بل فكر في طريقة أخرى تؤدي نفس الفرض ، أشار اليها في كتابه « القانون المسعودي » . وتعتمد تلك الطريقة على وجود جبل مرتفع يطل على سهل منبسط يمتد حتى الأفق ، وقد واتته تلك الفرصة وهو في الهند بصحبة السلطان مسعود في غزواته لشمال الهند . فهنالك وجد جبلا بجوار قلعة نندنه يطل على سهل أملس مثل سطح البحر ، فقاس ارتفاع الجبل من السهل باستخدام آلة تقيس زاوية الارتفاع ، ثم صعد الى قمته وقاس زاوية انخفاض

دائرة الأفق . وبعملية حسابية بسيطة يمكن ايجاد نصف قطر الأرض ومنه نستخرج محيطها أو القوس المقابلة لدرجة واحدة عند مركزها . والنتيجة التى حصل عليها البيرونى من رصده لطول القوس التى تقابل درجة واحدة هى $\frac{٢١٣}{٢٤٠}$ ٥٥ ميل أى قريبا من ٥٦ ميلا .

عند حديثنا عن تاريخ حياة البيرونى ، روينا قصة منقولة عن ياقوت تبين تفكير البيرونى فى المسائل العامية حتى وهو على فراش الموت ، وما دار من حديث بينه وبين أحد القضاة وهو يجود بنفسه . واذا كان هناك من يشك فى صحة هذه الرواية فليتصفح ما قاله البيرونى فى كتاب « تحديد نهايات الأماكن » فى صفحة ٢٤٥، بعد أن سرد الطرق المختلفة لتعيين أطوال البلدان ، والأخطاء الموجودة فى المراجع التى اطلع عليها ، وأسفه لعدم امكانه الترحال من بلد لآخر لقياس أطوالها وتصحيح الجداول السابقة .

« واذا تقرر ما قدمته ، ومقصودى معرفة طول بلد معين من الأرض معلوم الوضع من سائر البلاد ، وهو غزنة التى لم يحصل لى الى الآن الا رصد عرضها . فأما طولها بالأوجه التى تقدمت ، فلم يتمهد لأسباب عاقت عن ذلك . وان اعتذرت بصفتها ، تصورت نفسى كافرة بنعم الله الظاهرة والباطنة ، ثم نعم ولى النعمة التى سبغت على يده . ولكنى استوفقه تعالى لتسهيل التمكن من المباحث التى عشقتها ، ولم يفل عزيمتى فيها الوقوف على شفا الخطر فى الروح والبدن ، بل كنت أستعجل تحصيلها واتمامها قبل الأجل فى الساعات الهائلة ، وأستعينه على صلاح الدنيا والآخرة بمنه » .

واستطرد معددا الصعوبات التى صادفت القدماء فى تحصيل الأطوال ، والاعتماد على المسافات بين البلدان كما يرويها الرحالة والمسافرون . وفى حديثه نجد اشارة الى اليهود واغتيالهم للمسافرين تقربا الى ربهم :

« وقد كانت هذه الممالك فيما سلف عسرة السلوك ، لما كان في أهليها من التباين الملي ، فانه أعظم الموانع عن سلوكها على ما يشاهد من اسراع المخالف الى اغتيال مخالفه تقربا الى ربه فعل اليهود ، واستعباده – وهو أسلم أحواله – كما يفعله الروم، أو انكار حاله لغربته ، واتجاه التهم عليه ، وبلوغه من ذلك الى غايات المكاره الآتية على النفس .

فأما الآن – وقد ظهر الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وانتشر فيما بين الأندلس غربا وبين أطراف الصين وواسطة الهند شرقا ، وفيما بين الحبشة والزنج جنوبا ، والترك والصقالبة شمالا ، فجمع الأمم المختلفة على الألفة التي هي صنع تفرد الله به ، ولم يبق بينهم الا ما يكون من فساد ذوي العبث ومخيفي السبل، وصارت البقية المصرة على الكفر تهاب الاسلام وتعظم أهله وتهادنهم – فان تحصيل المسافات بالسمع الآن أوثق وأصح » .

ثم أراد أن يدلي بدلوه في تصحيح الأطوال ، أو ايجاد الفروق بين أطوال مختلف البلدان فاختار لذلك أشهرها ، وهي بغداد وشيراز وسجستان والري ونيسابور والجرجانية وبلخ وتولى معالجة هذا الموضوع حسابيا معتمدا على المسافات بينها كما يرويها الرحالة . ولما كانت هذه المسافات غير أكيدة ولا يمكن الوثوق بها تماما ، فانه أخذ عدة بلدان أخرى كعامل مساعد ، يستخرج الفرق بينها وبين بغداد مثلا ثم بينها وبين شيراز ، ومن ذلك يستنتج الفرق بين البلدين الرئيسيين بغداد وشيراز ، ويقارن الناتج بما خرج له من الحسابات المباشرة بين البلدين حتى يتأكد من صحة ما وصل اليه :

« فأما البلاد المعلومة العروض التي أجعلها قواعد في أمثلة العمل ، فهي بغداد وشيراز وسجستان ، ثم الري ونيسابور والجرجانية من خوارزم وبلخ. ثم ينضاف اليها غيرها للاستشهاد، وان لم تجر مجراها فأقيس أحدها بالآخر حتى يستقر الأمر فيها

على ما تسكن اليه النفس فى أطوالها فضل سكون . ثم أتدرج منها الى غزنة المطلوبة ، فان أرصادى بها وأعمالى فيها . ومعلوم أنها بالازدواجات تصير أطرافا ووسائط ، وأن بعضها عند بعض تكون مركبات وبسائط . والأمثلة تكون مرشدة للحاسب ومعينة على الامتحان والتعبير ، فلا آمن سهوا فى الحساب مع شدة ما انا فيه من الاضطراب ، والله ولى التوفيق للصواب » .

ويسير بعد ذلك قدما فى استنباط القوانين المطلوبة ، ثم فى استخدامها فى الحسابات . ونود أن نقدم للقارىء مثالا يبين الاختلافات الكبيرة بين مختلف المصادر التى لجأ اليها البيرونى لمعاونته فى حساباته ، فنجده يذكر فى صفحة ٢٨٧ :

« فهذه نيسابور ، قد ذكر ان منصور بن طلحة الطاهرى وجد عرضها رصدا (١٠َ ٥٣٦) . وحكى ابو العباس بن حمدون أنه رصد ما بين بغداد ونيسابور بعدة كسوفات فوجده (٣٠َ ٥١٢) ، واظن هذا مذكورا فى كتاب استدارة السماء والأرض لمحمد بن على المكى ، وعلى ذلك عامة منجميها . ووجد فى أرصاد بنى موسى ابن شاكر أن كسوفا رصد بسر من رأى وبنيسابور فوجد ما بينهما عشر درج ، وسر من رأى غربية عن بغداد ، فيجب أن يكون ما بينها وبين نيسابور أقل من ذلك » .

وحكى أيضا عن منصور بن طلحة ، «أنه وجد ذلك مثل ماتقدمت حكايته عن أبى العباس بن حمدون . والرصد أولى بأن يعتمد عند ازدحام الشبه ، لو وجد ذلك فى كتاب لمنصور أو غيره مخلدا مدونا دون الحكايات التى للاضطراب اليها سبيل . ومن شرائط الرصد أيضا الثقة بالراصد أنه مهتد للعمل ، اذ أمر الطول مفتن كما ذكرناه ، ثم السكون الى ما يورده باقتصاص العمل دون طيه اياه ، فان ذلك من أقوى التهم ، ومنها شهادة المسافات بين البلد وبين سائر ما أحاط به من البلدان . . وأما المسافات فانها لا تشهد

لذلك ، وخاصة فقد اقترن بالحكاية ما ازال الثقة عنها بالواحدة ، وهو أنه قيل : ووجد مابين مكة ونيسابور (٣٠´ ٥٢٠) ، وما بين نيسابور وبلخ (٥١٠) . أما البعد عن مكة مع البعد المذكور عن بغداد ، فيوجب أن يكون بين مكة وبغداد فى الطول (٥٨) . ومعلوم من أميال المسافة بينهما وهى ٧١٢ أنه أقل ، وقد رصده المأمون على ما ذكر حبشى فى كتاب الأبعاد والأجرام بالكسوف القمرى ، فوجده (٥٣) ، فالموضوع الأول محال .. ونحن ان استخرجنا ما بين نيسابور وبين الرى فى الطول ، على أن المسافة غير المعدلة بالسدس أو غيره بينهما مائة وخمسة وثلاثون فرسخا ، كان (١٣´ ١٨´ ٥٧) . فلعمرى ان طول نيسابور على ذاك يكون قريبا مما يستعمله منجموها اذا أعد طول الرى (٥٨٥) ، ولكن المسافات تأبى ذلك على ما تقدم ذكره » .

ويظل البيرونى تائها بين الأنباء المتضاربة والروايات المتباينة ، محاولا تنقيتها من الشوائب ليختار الصالح منها ، فأخذ يطلع على كل ما يقع بين يديه حتى ولو كان مؤلفه مجهول الاسم ، فقد يجد فى أحدها ما يمكن الاعتماد عليه :

« أما عرض بست فقد كنت وجدت أهلها يستعملونه (١٠´ ٥٣١) ، لكن الأعمال التى تردف هذا الفصل لا تعاضده . وقد عثرت بغزنة على زيج معمول على سنى دقلطيانوس مكتوب فى رق عتيق ، وفى آخره تعاليق بعض المجتهدين ، ونكت ومواليد وكسوفات شمسية مرصودة تواريخها فيما بين سنة تسعين وبين سنة مائة للهجرة ، وبذلك الخط فيه بعينه أن عرض بست (صفر ´ ٥٣٢) ، وان ارتفاع الجدى رصد بها فوجد (١٠´ ٥٣٤) . ومعلوم من قضية ذلك أن أقل الارتفاع المرصود لما وجد بذلك المقدار ، استعمل فيه الميل الأعظم على رأى بطلميوس ، فجاء العرض على ما ذكر باسقاط الدقيقة الواحدة من الميل ، ونحن اذا عملنا على ذلك الارتفاع والميل الذى وجدناه ´ ٣٥´ ٥٢٣)

وجمعناهما ، بلغ ذلك (٤٥َ ٥٥٧) ، تمام عرض بست ، فعرضها (١٥َ ٥٣٢) . وهو أولى مما عليه أهلها ، والأعمال المستأنفة شاهدة له » .

ولعل المجهود الضخم الذى بذله فى تصحيح أطوال البلدان والذى تضاعف بسبب اختلاف الروايات ، أثارت سخطه على من ينقلون الكلام والنتائج كالببغاء لا يحاولون التفرقة بين الغث والسمين . وكان أكثر سخطه منصبا على علماء خراسان وخاصة المعاصرين له ، لما لمسه فيهم من جهل ، وتفضيلهم المال على العلم :

« فهؤلاء حساب أهل خراسان ، لما بعدوا عن التحقيق ، ورضوا بالتقليد ، وقدموا الكسب على العلم ، جهلوا التحويل من البلاد الى غيرها . وحساباتهم من زيج البتانى الموضوع على الرقة وطولها مذكور فى الكتب ثلاثة وسبعون جزءا ، وحال طول بغداد بين السبعين والثمانين كما تقدم ذكره ، فأخذوا أبعاد بلادهم عن الرقة أنقص من أبعادها عن بغداد بثلاثة أجزاء ، وقد كان يجب أن يأخذوها أزيد بسبعة أجزاء .. فالقوم المذكورون لو كانوا محتظين بعلم الأخبار والتواريخ وعارفين بالممالك ومسالكها ، لعرفوا أن الطريق من بغداد الى العواصم وثغور الشام ودروب الروم على الرقة ، وأن الخلفاء فى غزواتهم جعلوها بعض منازلهم ، وأن الروم أبعد عن خراسان من بغداد ، فما على الطريق بين بغداد والروم كذلك أبعد عن خراسان . ولكن كيف ، وقد سألت أحدهم عن الرقة أين تكون ؟ومن أى البلاد هى ؟ فلم أجد عنده من العلم غير نصفه الذى لا يحصل كله من ضعفه ؛ مع استعماله اياها فى زيج البتانى ، وتعديل أبعاد البلاد منه . ولم ألف للرقة عنده الا ما للقبة عند متعصبى السندهند من الاقتصار فيها على اسم دون جسم ، واعتقاد ما لا ينساغ فى علم الهيئة ، وتحظره معالم الطبيعة . فسبحان من لم يبخل بالانعام على من هو أضل من الأنعام » .

تلك كانت مقتطفات من كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن ، وقد تحاشينا الدخول فى تفاصيل المواضيع العلمية التى تحتاج الى مجلدات لتفسيرها ومناقشتها .. وهذا هو شأن المؤلفات الكبرى للبيرونى . وقد تركنا مقدمة الكتاب التى تشغل ٤٥ صفحة حتى هذا الموضع ، لأنها لا تتناول علم الفلك أو الجغرافيا فحسب ، بل تكشف أيضا عن فلسفة البيرونى ودفاعه عن العلوم وفائدتها ، ودعوته الى اتباع أساليب الخلق والابداع فى الأبحاث العلمية وترك التقاليد الرجعية المتجمدة . كما نجد فى تلك المقدمة أسباب نشأة العلوم والفنون مثل الهندسة والطب والموسيقى والفلك والمنطق والبلاغة والجغرافيا وغيرها ، بالاضافة الى فصول عن تاريخ قناة السويس وعن التاريخ الجيولوجى لخوارزم وعن ربان مجهول قاد السفن الى الصين وجزر اندونيسيا . فهذه المقدمة تعتبر بحق دائرة معارف تستحق منا الاشارة اليها أن لم يسمح المجال بدراستها دراسة وافية .

بدأ البيرونى مقدمة كتابه بهجوم على المنجمين ومدعى العلم والمعارضين للتقدم العلمى الذين يحاولون بذلك اخفاء جهلهم أو الجرى وراء كسب ومنفعة :

« وانى لأكاد أصدق بموضوعات أصحاب صناعة الأحكام (المنجمون) فى الأدوار وتدابير الكواكب لمئيها وألوفها ، وجريان الأحوال فى العالم بأسره بحسبها ، اذا نظرت الى أهل زماننا وقد تشكلوا فى أقطاره بشكل الجهل ، وتباهوا به ، وعادوا ذوى الفضل ، وأوقعوا بمن اتسم بعلم ، وساموه أنواع الظلم والضيم ... فلا ترى فيهم الا يدا ممتدة لا تستنكف عن دناءة ولا ترجع الى حياء وانفة ، قد ركبوا مركب التنافس فيه ، وانتهزوا الفرص فى الازدياد منه ، حتى جرهم ذلك الى أن عافوا العلوم واجتووا خدمها . فالمفرط منهم ينسبها الى الضلال ليبغضها الى أمثاله من الجهال ، ويسمها بسمة الالحاد ليفتح

لنفسه باب التدمير على أصحابها فيخفى حاله بانقراضهم وانمحاقها .

والجافى منهم المتقلب بالانصاف ، يستمع لها استماع معاند يرجع فى عقباه الى نذالة الأصل ، ويظهر الحكمة البالغة فى قوله : « فما المنفعة فيها » ، جهلا منه بفضيلة الانسان على سائر الحيوان ، وأنها هى العلم بالاطلاق الذى به صار محجوجا عليه دونها ، وانه هو المطلوب لذاته ، واللذيذ بالحقيقة دون غيره . وأية منفعة أظهر ، وأية جدوى أوفر لشىء من امتناع اجتلاب الخير واجتناب الضير دينا ودنيا الا به ، ولولاه لم يؤمن أن يكون المجتلب شرا والمجتنب خيرا ... وما أظنه ينتحى فى المنفعة المذكورة ، حالا من أحوال الآخرة . وهب أنه عناها ، فمعلوم أنه لن ينتفع بالعبادة الساذجة دون تقديم المعرفة بها ، وتمييز حقها من باطلها . فهى مفتنة وفى العالم كثيرة ، ويستعملونها أمم مختلفة ، وممتنع أن يعمهم الحق على تضادهم . ومهما قصدها على هذا النحو واربه الأمر الى البحث عن أحوال العالم فى قدمه وحدثه . فان استغنى عنه ، لم يستغن فيما أمه عن تصفح التدابير التى يجرى عليها نظام العالم فى كله وأجزائه ، والاطلاع على حقائقها ، ليعرف بها المدبر وما يستحقه من الصفات التى منها يتوصل الى تعرف النبوة فى وجوبها أو امتناعها ، ثم تحقيقها ليعرف النبى من المتنبى . فالدعاة كثير ، ولابد لاختلافهم من أن يكون فيهم مضل .

وهذا النظر هو الذى ارتضاه الله تعالى من عقلاء عباده ، قال — وقوله الحق المنير — « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » . وهذه الآية الشريفة قد اشتملت على جوامع مافصلته ، والى أن يستعملها الانسان حق استعماله قد أتى على جل العلوم والمعارف . فاما أن اخذها تقليدا وحكاية ، واما أن حققها علما ودراية . وشتان بين محقق ومقلد فـ « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب» .

وهكذا ، نرى البيرونى يضع أصول دراسة العلوم ، بالابتعاد عن التقليد والمحاكاة ، وتقصى الحقائق والتفاصيل دون القشور السطحية ، والا يكون الهدف الرئيسى للعالم هو الكسب المادى . ثم يفند حجج المتعصبين الذين يتساءلون عن المنفعة التى تعود على الناس من العلم . فيبدأ مشيرا الى أن العلم هو الذى يفرق بين الانسان والحيوان ، فبه يمكن اجتلاب الخير واجتناب الضير سواء فى الدنيا أو فى الآخرة . فالشئون الدنيوية كالتجارة وغيرها تحتاج الى شيء من العلم والمعرفة ، والأمور الدينية تحتاج الى دراسة للأديان وتاريخها ... بل ان دراسة نظام الكون ضرورية ، اذ هى الكوة التى نطل منها على معجزات الخالق وقدرته سبحانه وتعالى . ونلاحظ أن البيرونى يستشهد بالآيات القرآنية ، وهو كثيرا ما سلك هذا الطريق فى عدة مواضع ، مما يشير الى دراية تامة بما جاء فى الكتاب العزيز وتفهم عميق لما يحتويه .

وينتقل من ذلك الى الحديث عن نشأة العلوم وأسبابها ، مشيرا الى اضطرار القدماء الى الانضمام فى جماعات كى تدرأ الأخطار عن أفرادها ، وما أدى اليه ذلك من تعاون بينهم ، ثم حاجتهم الى مكافأة كل بقدر ما يؤديه من عمل فاستخدموا لذلك الجواهر والأحجار الكريمة لنفاستها وجمال منظرها وعدم تغيرها مع مرور الزمن . وفى سياق الحديث عن التعاون بين البشر ، يشير الى نوع من التعاون بين الطيور ، يعتبر من أجمل الأمثلة التى يجدر بنا جميعا أن نتدبرها ونسير على منوالها :

« فأما العلوم — بعد أن كان الانسان مطبوعا على قبولها — فقد اضطرته اليها كونه فى العالم مدة تصرفه فيه على قضايا التكليف ، لأنه لكثرة حاجاته وقلة قناعته ، وتعريه عن آلات الدفاع مع وفور أعدائه ، لم يجد بدا من التمدن مع أهل جنسه ، قصدا للتراند راشتغال كل واحد منهم بشغل يكفيه ويكفى غيره . واحتاج كل منهم الى شيء يتجزأ بالقسمة ويجتمع بالتضعيف ،

فيقوم بازاء الأعمال والحوائج على نسبها ، اذ كانت بأنفسها غير متعادلة ، ولأوقات حاجياتهم اليها متساوية ، فاصطلحوا على الأعواض والأثمان التى منها الفلزات الذائبة ، والجواهر النفيسة وما شابهها ، مما عز وجوده وطال بقاؤه وراق منظره . فوضعوها على القسمة العادلة التى لا يستغنى عنها اللصوص والجائرون فيما بينهم ، بل لا يخلو منها الطير كالبرك والحواصل ، فانها فى صيد السمك تفترق فى ضحضاح الماء فرقتين ، احداهما تثير الصيد بضرب الأجنحة على الماء وتسوقه ، والأخرى تترصد له فتصطاده . ثم لا تستبد بأكله دون الفرقة المثيرة ، بل تجمعه فى الأكياس التى فى أصول أشداقها الى أن تفرغ كلها ، فحينئذ تخرجه وتقتسمه على سواء . والقدرة لله سبحانه » .

أما الأسباب التى أدت الى نشأة الرياضيات ، فترجع الى حب الانسان الى الامتلاك والاقتناء ، وما صاحب ذلك من عمليات بيع وشراء وميراث :

« ثم لما كان الانسان المتمدن مقتنيا بحرصه ما زين له من القناطير المقنطرة ... والخيل المسومة والأنعام والحرث ؛ احتاج ــ فى نقلها ونقل أبعاضها المتفاضلة من ملك غيره الى ملكه ، وقسمتها على أصحابه اذا شاركوه فى النقل ، اما بالأعواض واما بالميراث ــ الى حساب ومساحة لم يجد منهما بدا . وهما أصول العلوم المسماة رياضيات وتعاليم ، وتحقيقها علم الهندسة ، فهذه منفعتها » .

والأمراض التى يتعرض لها الانسان والحيوان ، نتيجة لوجود الجراثيم فى الهواء الذى يستنشقه والماء الذى يشربه والطعام الذى يأكله ، اضطرته الى البحث العلمى فى الطب البشرى والطب البيطرى ليدرأ عن نفسه وعن دوابه أخطار المرض :

« واذا كان مستنشقا الهواء القابل لصنوف الآفات ، ومغتذيا

بالماء والنبات المتكيفين بصروف الكيفيات ، مستهدفا لأنواع الحوادث السماوية والأرضية الآتية اليه من خارج ، والهائجة عليه من داخل ، وكان رد بعضها ممكنا ، وكل ضد لضده مهيئا معدودا ، حدته التجارب والقياسات الى تأثيل علمى الطب والبيطرة ... » .

وفى الموسيقى ، يتحدث البيرونى عن ميل النفس البشرية الى المنظوم ــ مثل الشعر ــ ثم تفضيلها لما يمكن تلحينه منه :

« ولما لم يخل مترفو المتمدنين عن الملاهى التى مرجوعها الى الألحان ، بل غير مترفيهم وهم أحرص عليها ، وزهادهم وقد رخص لهم فى استماعها ، وكانت أشد تأثيرا فى النفس اذا انتظمت وائتلفت ، فالنفس للنظام أقبل ، حتى انها وجدت الى الشعر بسبب نظامه أسرع ، والى الملحون به منه أميل ، لاجتماع نظام الشعر الى ائتلاف اللحن ، عمل الرياضيون فى ذلك ما أبانوا به عن حقائق أصوله المعروفة بعلم الموسيقى » .

ورغم عدم اعتراف البيرونى بالتنجيم كعلم ، كما أوضح فى مواضع عديدة من مؤلفاته ، الا أنه تناوله بالحديث فى بعض تلك المؤلفات ، استكمالا للموضوع وتسجيلا لناحية من النواحى التى تعتمد على الحسابات الفلكية . وعند حديثه عن أسباب نشأة صناعة التنجيم ، اقتصر على جانب واحد منها يمكن اعتباره علما حقيقيا ... وهو الظروف الطبيعية المتصلة بالظواهر الفلكية :

« ثم لما كان الانسان ، بما فى غريزته من العلم ، حريصا على تعرف ماغاب عنه ، وعلى تقديم المعرفة بما يستقبل من حالاته ، ليتمكن بها من الاحتياط والأخذ بالحزم فى دفع ما يمكن دفعه من الحوادث . وكان تعاقب عليه من تأثيرات الشمس فى الأهوية حالات دائرة فى فصول السنة ، ولتأثيرات القمر فى البحار والرطوبات حالات دائرة فى أرباع الشهر واليوم بليلته ، فتدرج

تجاربه منها الى القياسات بغيرهما من الكواكب ، وحصلت له صناعة أحكام النجوم على خاص طريقها من غير عناء ولا تكلف ما ليس بها » .

ولم يدع البيرونى النحو والعروض والمنطق دون الاشارة الى أسباب نشأتها . وفى هذه الفقرة يظهر المامه باللغة اليونانية وقواعدها ، عندما يناقش المعارضين لادخال المنطق فى اللغة العربية ثم يستميح لهم العذر بالقاء اللوم على المترجمين الذين يستخدمون الألفاظ العلمية اليونانية كما هى دون محاولة البحث عن بديل عربى :

« واذ كان الانسان ناطقا ، ومع مخالفيه فى أمور الدنيا والآخرة مجادلا خصيما ، احتاج الى ميزان لكلامه ، اذ كان الكلام فى ذاته محتملا للصدق والكذب ، والقياس المركب منه فى الجدال معرضا للمغالطة المضلة والصحة المبينة ، حتى يعيره به ويصححه بطرقه عند الاشتباه ، فاستخرجه وهو المسمى منطقا .

وأعجب بمن يكرهه ويسمه بالسمات العجيبة اذا عجز عنه ، ولو رفض الكسل ولم يخلد الى الهوينا وطالع النحو والعروض والمنطق المترادفة على الكلام لعلم أنه انقسم بذاته الى النثر والنظم، فوضع النحو لمنثوره والعروض لمنظومه عيارين صادقين مصححين، والنحو أعمهما لأنه يشتمل على النثر والنظم معا .

ثم الكلام فى كل القسمين كان عبارة عن معنى يقصده المتكلم، والمعانى اذا ألفت للقياس أوجبت معنى أو نفته . فجعل المنطق ومقاييسه معايير لذلك التأليف ، وهو فى التعميم كالنحو . وجميع الثلاثة أفراس رهان لا يلحق أحدهما مطعن الا لحق الآخر مثله .

لكن المنطق لما كان من بينهما منسوبا الى أرسطوطاليس ، وقد شوهد من آرائه واعتقاداته مالم يوافق الاسلام ، اذ كان يرتئيها

هو عن نظر لا عن ديانة ـ فقـــد كان اليونانيون والروم فى زمانه يعبدون الأصنام والكواكب ـ فصـــار الآن من يتعصب عن تهور ينسب لأجله كل من تسمى باسم يختتم بالســـين الى الكفـــر والالحاد . والسين فى كلام القوم ولغتهم غير أصيلة فى الاســـم ، وقائمة مقام الرفع للمبتدأ به فى لغة العرب . على أن ترك الشىء وتزييفه بغضا لصاحبه ، والاعراض عن الحق لأجل ضلال قائله فى غيره ، أخذ بخلاف ما نطق التنزيل به ، قال الله تعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله » . نعم ، كتب المنطق بألفاظ تشابه ألفاظ اليونانيين ، وعبارة خلاف المعهودة بين المحدثين ، والأمر فى ذاته دقيق يلطف فيصعب على القوم مأخذه ، وينحرفون عنه لأجله . وها نحن نراهم يستعملون فى الجدل وأصول الكلام والفقه طرقه ، ولكن بألفاظهم المعتـــادة فلا يكرهونها . فاذا ذكر لهم : ايساغوجى وقاطيغورياس وبارى أرمنياس وأنولوطيقا ، رأيتهم يشمئزون عنه وينظرون نظر المغشى عليه من الموت . وحق لهم ، فالجناية من المترجمين ، اذ لو نقلت الأسامى الى العربية فقيل : كتاب المدخل والمقولات والعبـــارة والقياس والبرهان ، لوجدوا متسارعين الى قبولها غير معرضين عنها ... » .

ننتقل بعد ذلك الى علم الجغرافيا وتحديد المســـافات بين مختلف الأماكن ، والقدرة على تعيين الاتجاهات للمسافرين برا ، والدراية الكاملة بطبيعة الماء وقاع البحر للربابنة والمرشـــدين . هنا أيضـــا ينبرى البيرونى لمناقشة المعارضين لذلك العـــلم والمتسائلين عن فائدته :

« وقد كان جمعنى وأحد أدباء اللغة مجلس جرى فيـــه ذكر كتاب المسالك والممالك ، فأفرط الأديب المذكور من الوضع عنـــه حتى كاد يخرجه من جملة المعارف . واعتمد فى كلامه على حديث المنفعة ، وأن لا طائل للاحاطة بكمية المســـافات بين الممالك .

فتعجبت منـــه ـ ولا عجب ، فالشهوات مختلفـــة والارادات متباينة ـ وليس فيها على ماقيل خصـــومة ، الا أن تقييدها بشخص دون آخر أحسن من اطلاقها .

فلا فرق بينه وبين من يقـــابله من أهل زماننا الذين آثروا الفارسية على العربية ، فيقول له : ما منفعة ارتفـــاع الفـــاعل وانتصاب المفعول به ، وسائر ما عندك من علل وغرائب اللغـــة ، فلست محتاجا الى العربية أصلا . ويكون ذلك الخطـــاب حقا بالاضافة اليه لا بالاطلاق .

ولم لا أتعجب منه وهو يتلو كلام الله تعالى : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وقوله تعـــالى : « أو لم يســـيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبـــة الذين من قبلهم » . وقوله « فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون » . وقوله : « فأسر بأهلك بقطع من الليل » ، وسائر أوامره بالسير والسرى للاعتبار وللغزاة والحج والهجـــرة . ثم للتصرف فى النصيب من الدنيا الذى لا ينسى ، وغير ذلك مما لا ينزاح بغير الأســـفار الشاقة ...

فهل كانوا يسافرون بالجزاف ويشربون السم بالتجـــربة ، أم يلزمون سموت المقاصد ويطئون آثار المســـالك ، ويعـــدون مسافات المراحل والمناهل ، ويصأكون أقدام الأدلاء الذين من الله تعالى عليهم بالنجوم ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، وهل كانوا منهم الا بمكان المتعلم من العالم والمسترشد من المرشد .

وانموذج هذا الن فثأه حال عن الارتحال ، ان يقيس بين غريب طرأ على بلدة لا يعرف سككها وأســـواقها وشوارعها ، وآخر من أهلها قد استظهرها كلها ، أليس بين حاليهما فى السكون والانزعاج والتحير والابتهاج بون بعيـــد . فعلى مثله حال من يسافر على علم بالمسالك أو جهل بها ... » .

ويسرد بعد ذلك واقعة تاريخية عن خالد بن الوليد ، وأنه ضل الطريق هو وجماعته فى بادية ما بين العراق والشام وكادوا يهلكون من العطش ، لولا أن أنقذهم دليل كليل البصر . ثم يسوق قصة عن ربان مجهول اسمه (مافنا) كان يرشد السفن الى اندونيسيا والصين :

« ولو أحاط علما بخبر خالد بن الوليد حين قطع بادية ما بين العراق والشام ، وركب الغرر فيها ، واخراج الدليل لهم بالعلامات الى موضع الماء فى رمده وعجزه عن النظر والاهتداء ، لعلم أنه أحيا جماعات قد أيسوا من أنفسهم .

ولقد كان بالقرب من زماننا فى ربانية سيراف (ميناء فى ايران) دليل عالم بطرق البحر يسمى مافنا ، استأجره بعض النواخذة بمال كبير الى الصين . فلما قرب من أبوابها وهى الأودية التى ينصب الى البحر من شواهقها ، حالت الريح بينه وبين ولوج الباب المفضى الى خانفو ، وهو أول بلاد الصين وكان مقصده . فتعلق مافنا بباب آخر مؤد الى غير بلد خانفو . وسأله صاحب المركب أن يرده الى البحر ويقصد به باب خانفو ، فحذره مافنا حوادث البحر بعد أن سلم منها ، فأبى النواخذا وأعيد المركب الى اللجة فعصفت عليه ريح أهلكته . وطرح مافنا نفسه على خشبة طفت به ، وبقى فى البحر ثلاثة أيام بلياليها ، الى أن اجتاز به من الزابج (جزر اندونيسيا) الى الصين سنبوق قد ضل طريقه . فلوح لهم مافنا واحتملوه لشهرته ، واستبشروا بمكانه وسألوه الارشاد فطلب عليه أجرة . وغضب صاحب السنبوق وقال له : أما يقنعك تخليصنا روحك حتى تطالبنا بالأجرة وأنت شريكنا فى السلامة . فقال : ما كنت لأرشدكم أو تعطونى مالا ، فالموت عندى ودخولى الصين بهذه الحالة سواء . قال صاحب السنبوق : لئن لم ترشدنى لأعيدنك الى حالك . قال : شأنك . فقذفوه على تلك الخشبة وساروا واستمر بهم

التحير حتى هلكوا . وبقى مافنا فى البحر يومين حتى اجتاز به سنبوق آخر ضال ، فاستخبروه خبره وعزمه فيهم ــ حين أخبر بأمره ــ فقال : طلب الأجرة ، والا فردونى الى اللجة . فأعطوه مائتى مثقال ذهب ، وأخذ سكان المركب بيده وطرح البلد وهو رصاصة ثقيلة يسبر بها مقدار العمق ونتوء الجبال من القعر ، واستخرج طين القرار وشمه حتى تحقق الموضع ، وعدل بهم الى الطريق فسلم ... » .

ثم يناقش فائدة علم الجغرافيا وتحديد خطوط الطول والعرض للبلدان من ناحية أخرى هى الناحية الدينية لتعيين اتجاه القبلة ، وذلك يحتاج الى معرفة علمية دقيقة ، حتى ان بعض رجال العلم أخطأوا فى هذا المجال :

« ثم نعرض عن جميع ذلك صفحا ، ونتركه لمن أنكره جانبا ، ونبدى ما نحن فيه من شدة الحاجة الى تعرف سمت القبلة وتحقيقه لاقامة عماد الاسلام وقطبه . قال الله تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره » . وقد علم فى بداءة العقول أن هذه الوجهة مختلفة بحسب جهات التنحى عن الكعبة ، يشاهد ذلك فى نفس المسجد الحرام ، فكيف فيما عداه ! فان قلت المسافة اهتدى لها كل مجتهد ، وان بعدت لم يهتد لها غير أصحاب علم الهيئة . فلكل عمل رجال . وقد حصلوا للبلدان أطوالها التى بها تتباعد فى الامتداد شرقا وغربا ، وعروضها التى تتباعد شمالا وجنوبا ، بحسب قضايا الوجود فى الهيئة من حركات الثقال نحو المركز . الا أن القوم لما لم يعطوا القوس باريها ، وأعجبوا بأنفسهم عند غوصهم على دقائق علم ما ، وظنوا أنهم يتمكنون من سائره لا من جهة مبادئه ومآخذه فارتبكوا فيه ، فتراهم يشتغلون فى تسوية القبلة بمهاب الرياح وبمطالع منازل القمر وغير ذلك مما لا جدوى له فيها .

ثم لا يكاد أصحاب الصناعة يتمكنون من تسويتها به ، فكيف من هو من الصناعة بمعزل ! وأعجب جميعهم من اشتغل بالزوال واعتقد أولا أنه لجميع المعمورة فى وقت واحد . وأضاف الى ذلك مقدمة أخرى وهى أن الشمس تسامت رءوس أهل مكة ، ثم ألف منهما قياسا وقال : ان وقت الزوال فى جميع المعمورة واحد ، والشمس تسامت رءوس أهل مكة وقت الزوال . ثم أنتج من ذلك أن مستقبل الشمس وقت الزوال اذن هو مستقبل مكة .

وانما اشوى هذا القائس لأنه بنى قياسه على مقدمتين : احداهما كاذبة والأخرى جزئية قد جعلها كلية . ولا يناقش مثله على انسلاخه أصلا من علم الهيئة ، ولكنا نأخذ من عقله فى دبه ، ونسأله عن قياسه فى نفس مكة . لم لم تكن فيها القبلة على خط الزوال ، وعن المواضع التى بعدت عنها شرقا وغربا بمقدار ميل ، لم لم يصل فيها على خط الزوال وهو فيها كلها ؟ أما عنده فواحد بالحقيقة ، وأما عند أصحاب علم الهيئة فواحد فى الحس ..... ولو لم يكن بنا حاجة فى تحقيق المسافات بين البلدان وحصر المعمورة ، بحيث يعرف سموت بعض بلدانها عن بعض ، غير الحاجة الى تصحيح القبلة ، لوجب علينا صرف العناية اليها وقصر الهمة عليها . فالاسلام قد عم أكثر الأرض ، وبلغ ملكه أقصى المشارق والمغارب ، وكل منهم محتاج لاقامة الصلاة ونشر الدعوة الى القبلة » .

ويسجل البيرونى بعد ذلك اهتمامه بهذا الفرع من العلوم ، ومحاولته تأليف كتاب شامل كامل عن الجغرافيا ، وكيف أنه بدأ بتصحيح المسافات بين البلدان وتصحيح أسمائها فأنفق فى سبيل ذلك أموالا طائلة لمن سلكوا مختلف البقاع ولم يضن عليهم بالمناصب الكبرى :

« ولقد كنت عازما فيما مضى على الجمع بين طريقى بطلميوس

فى كتاب جاوغرافيا ، والجيهانى وغيره فى كتب المسالك ، جمعا للمتفرق ، وتسهيلا للمنغلق ، واكمالا للفن . فقدمت تصحيح المسافات وأسامى المواضع والبلدان سماعا ممن سلكها ، والتقاطا من فى مين شهدها ، بعد الاستيثاق والاحتياط باستشهاد بعض على بعض . ولم أضن على مرغوب فيه من مال وجاه بجنب حصول هذا المقصود ، وعملت لها نصف كرة قطرها عشر أذرع لاستخراج الأطوال والعروض من المسافات بها ، اذ الزمان يضيق عن استعمال الحساب فيها على كثرتها وطوله . لكنى كنت أعتمد فيما كنت أحصل على الضبط بالكتابة دون الحفظ اغترارا بالسلامة وأمنا من الحوادث . فحين غافصتنى النكبة أتت على ما ذكرت فى جملة ما أتت عليه من اجتهاداتى ، ومرت كأن لم تغن بالأمس . وان سهل الله الاعادة — وهو عليها قدير — فلست بمتثاقل عن اتمام ذلك » .

أما تاريخ العالم وبدء الخليقة ، فلايمكن تحديد موعد لها . وفى هذا الصدد ، قرأ البيرونى الكتب السماوية المنزلة على النبيين ، فلم يجد فيها نصا صريحا عن تاريخ خلق العالم ، سوى تفسيرات بعض المجتهدين ... ولكنه يرد عليهم متسائلا كيف يتوهمون أن الأيام حينئذ هى نفس الأيام التى نستخدمها الآن ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى فى سورة الحج من أن « يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وفى سورة البقرة « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

ويسلك البيرونى طريقا آخر فى هذا الشأن ، ربما كان أساسا أعتمد عليه علماء الجيولوجيا فيما بعد لتعيين عمر الأرض ... وهو طريق التغيرات الجيولوجية فى العالم على مدى الأزمان . ولكنه اكتفى بالاشارة اليها والى فائدتها فى تحديد الفترات دون حسابها ، نظرا لقلة البيانات والمعلومات المطلوبة :

« ولا نعلم من أحوالها الا ما يشاهد من الآثار التى تحتاج فى حصولها الى مدد طويلة وان تناهت فى الطرفين ، كالجبال الشامخة المتركبة من الرضراض الملس ، المختلفة الألوان ، المؤتلفة بالطين والرمل المتحجرين عليها . فان من تأمل الأمر من وجهه وأتاه من بابه علم أن الرضراض والحصى هى حجارة تتكسر من الجبال بالانصداع والانصدام ، ثم يكثر عليها جرى الماء وهبوب الرياح ، ويدوم احتكاكها فتبلى ويأخذ البلى فيها من جهة زواياها وحروفها حتى يذهب بها فيدملكها ، وأن الفتات التى تتميز عنها هى الرمال ثم التراب ، وأن ذلك الرضراض لما اجتمع فى مسايل الأودية حتى انكبست بها ، وتخللها الرمال والتراب فانعجنت بها واندفنت فيها وعلتها السيول ، فصارت فى القرار والعمق بعد أن كانت من وجه الأرض فوق ، تحجرت بالبرد ، لأن تحجر أكثر الجبال فى الأعماق بالبرد ، ولذلك تذوب الأحجار بتسليط النار .. وان وجدنا جبلا متجبلا من هذه الحجارات الملس ــ وما أكثره فيما بينها ــ علمنا أن تكونه على ما وصفناه ، وأنه تردد سافلا مرة وعاليا أخرى . وكل تلك الأحوال بالضرورة ذوات أزمان مديدة غير مضبوطة الكمية ، وتحت تغايير غير معلومة الكيفية .. » .

ويستطرد البيرونى فى حديثه عن التغيرات الجيولوجية وأثر ذلك فى انتقال العمران من موضع الى آخر ، ويستشهد على ذلك برواية لأبى العباس الايرانشهرى بأنه « شاهد بقلعة تعرف بالبيضاء ، على فرسخ من السيرجان (جنوب غربى ايران) من مدن كرمان ، أصول نخيل قد كانت بها فصرد الموضع وذهب نخياله وجفت ، ولم يكن فى ذلك الوقت حوله بعشرين فرسخا نخيل ، وزاد الأمر بيانا أنه لما علا الموضع غار حواليه وأنها كانت تجرى من قبل » .

ومن التغيرات الجيولوجية المعروفة ، انحسار البحار عن مواضع وطغيانها على مواضع أخرى . ومن البصمات التى يبحث عنها

الجيولوجيون فى هذا المجال ، أصداف البحر وبقايا الحيوانات فى المناطق البعيدة عن الشاطىء . والى هذا أشار البيرونى فى حديثه عن تلك التغيرات ، مع ذكر أسماء بعض المناطق التى اجتازت تلك المرحلة :

« وعلى مثاله ينتقل البحر الى البر والبر الى البحر ، فى أزمنة ان كانت قبل كون الناس فى العالم فغير معلومة ، وان كانت بعده فغير محفوظة ، لأن الأخبار تنقطع اذا طال عليها الأمد ، وخاصة فى الأشياء الكائنة جزءا بعد جزء ، وبحيث لا يفطن لها الا الخواص .

فهذه بادية العرب وقد كانت بحرا فانكبس ، حتى ان آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ، فانها تبدى أطباقا من تراب ورمال ورضراض ، ثم يوجد فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يحمل على دفن قاصد اياها هناك . بل يخرج منها أحجارا اذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك ، اما باقية فيها على حالها ، واما بالية قد تلاشت وبقى مكانها خلاء متشكل بشكلها . كما يوجد مثله باب الأبواب (حاليا دربنت على الشاطىء الغربى لبحر قزوين) على ساحل بحر الخزر . ثم لا يذكر لذلك وقت معلوم ولا تاريخ البتة . .

ونحن نجد مثل هذه الحجارة التى يتوسطها آذان السمك فى المفازة الرملية التى بين جرجان وخوارزم ، فقد كانت كالبحيرة فيما مضى ، لأن مجرى جيجون أعنى نهر بلخ (اموداريا حاليا) ، كان عليها الى بحر الخزرعلى بلد معروف ببلخان (كراستوفودسك حاليا) .

وهكذا يذكر بطلميوس مصبه فى كتاب جاوغرافيا أنه الى بحر أرقانيا أى جرجان ، وبيننا الآن وبين بطلميوس قريب من ثمانمائة سنة وقد كان جيحون حينئذ يخترق هذه المواضع التى هى الآن مفازة من موضع هو بين زمّ (كركى حاليا) وبين آمويه

(جارجو حاليا) ، فيعمر البلاد والقرى التى بها الى لدن بلخان ، وينصب الى البحر بين جرجان والخزر ، فاتفق له من الانسداد ما مال له ماؤه الى نواحى أرض الغزية ، واعترض له جبل يعرف الآن بفم الأسد ، وعند أهل خوارزم بسكر الشيطان . فاجتمع وطما بحيث آثار تلاطم الأمواج باقية على علاوته ، فلما جاوز حد الثقل والاعتماد على تلك الأحجار المتخلخلة خرقهـــا واخترقها قريبا من مرحلة ، ثم مال يمنة نحو فاراب على مجرى يعرف الآن بالفحمى ..

ثم جرى الماء كله نحو خوارزم بعد أن كانت صباباته تسيل اليها وتتصفى من خلال موضع منســـد بالصخور ، هو الآن فى أوائل سهل خوارزم ، وخرقها وغرق البقعة وصـــيرها بحيرة من لدن هناك . ولكثرة المياه وشدة جريها تكدر بما يحمل من الطين ، فكان يرسب عند الانبساط ما معه من التراب ، وبغلظ الأرض من عند المصب أولا فأولا ويظهر يابسا ، وتبعـــد البحيرة الى أن ظهرت خوارزم بأسرها . وبلغت البحيرة فى التباعد الى جبـــل معترض أمامها لم يمكنها أن تزاخمه ، فانحرفت نحو الشمال الى الأرض التى ينزلها التركمانية الآن ... »

ثم ينقل لنا البيرونى أنباء عن بعض التغيرات الجيولوجية فى مصر وعن محاولات حفر قناة السويس وكيف نجح المشروع ، ثم ردمت بعد ذلك منعا لغزو الفرس للبلاد :

« وهذه أرض مصر ، قد كان النيل ينبسط عليها ـ كما ذكر أرسطوطاليس فى كتاب الآثار العلوية ـ فيطبقها كأنها بحر ، فلم يزل ينضب عنها ، وييبس ماعلا منهـــا أولا فأولا ويسكن الى أن امتلأت بالمدن والناس ، وان جهلوا الآن مبدأ العمارة ...

وحين كانت أرض مصر بحرا ، حرص ملوك الفرس فى بعض استيلائهم على مصر ، على أن يحفروا من القلزم اليهـــا ويرفعوا

البرزخ عما بين البحرين ، حتى يمكن المركب أن يسير من البحر المحيط فى المغرب اليــه بالمشرق ، كل ذلك ارتفاقا وطلب تعميم المصلحة . وكان أولهم سسطراطس الملك ثم داريوش ، وحفروا مسافة مديدة هى باقية الآن ، يدخلهـــا ماء القلزم بالمد ويخرج بالجزر . فلما قاسوا ارتفاع ماء القلزم أمسكوا عما راموه خوفا أن يفسد القلزم نهر مصر لاشرافه عليه . ثم تممه بطلميوس الثالث (ملك مصر فيما بين ٢٤٦ ، ٢٤١ ق.م) على يد أرشميدس بحيث حصل الغرض بلا ضرر ، وطمه بعد ذلك أحد ملوك الروم منعــا للفرس عن ورود مصر منه » .

ويسوق البيرونى بعــد ذلك مزيدا من الأمثلة والأدلة على التغيرات الجيولوجية وانتقال العمارة من مكان الى آخر . ومن أبرز تلك الأمثلة وجود آثار العمارة فى بطائح البصرة حيث تحول اليها نهر دجلة فأغرقها . كما يشير الى ما حدث عند حفر قناة قرب مدينة نيسابور فى شمال شرقى ايران ، فعلى عمق خمسين ذراعا وجدت أصول ثلاثة من أشجار السرو قد نشرت بالمنشار مما يدل على أنها كانت وقتا ما عند سطح الأرض ثم طمرتها عوامل التعرية .

ثم يحاول البيرونى بعد ذلك أن يناقش آراء المجتهــدين فى أسباب انتقال العمارة من موضع الى آخر ، وآراء غيرهم فى انتقال اليابس نفســـه على سطح الأرض دون أن يقطع فى ذلك برأى حاسم ... ولكنه ينتهى الى نتيجة هامة ثبت صحتها فى العصر الحديث ، وهى تغير عروض البلدان على سطح الأرض :

« فأما عروض البلدان فيمكن أن تتغير به تغيرا محسوسا ، بل ربما اختلفت بها الجهة أو تبلغ مواضع مهلكة فتأتى عليهــا . ولذلك يجب أن يداوم مراعاتها وامتحانها » .

الفصل السادس

القانون المسعودى

يعتبر هذا الكتاب أهم مؤلفات البيرونى فى علم الفلك وحساب المثلثات ، وهو وان كان فى الواقع موسوعة فلكية لا تضم سوى جزء صغير جدا من حساب المثلثات باعتباره أساس البراهين والحسابات للنظريات الفلكية ، الا أن هذا الجزء الصغير يشتمل على نظريات مبتكرة كان العالم فى حاجة اليها .. بل ان أحدها منسوب الى علماء الغرب الذين أتوا بعد البيرونى بستة قرون .

كتب البيرونى هذا المؤلف عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وأطلق عليه اسم « القانون المسعودى فى الحياة والنجوم » نسبة الى السلطان الغزنوى مسعود بن محمود — ويقول ياقوت أن مسعود أهدى المؤلف حمل فيل من القطع الفضية مكافأة له على هذا العمل، لكن البيرونى رفض الهدية قائلا انه يعمل للعلم لا للمال .

وقد وصل الينا من هذا الكتاب سبع نسخ مخطوطة موزعة فى عدة دول :

أقدم تلك النسخ موجودة بمكتبة بادلين باكسفورد منسوخة عام ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) ، يليها نسخة موجودة فى فرنسا بالمكتبة

الأهليـــة فى باريس وقـــد كتبت عام ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . أما النسختان الثالثة والرابعـــة فموجودتان فى تركيا ، احداهما بمكتبة الملة باستانبول وقد كتبت عام ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) والثانية بمكتبة بايزيد باستانبول وتاريخها قبل سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) . وتوجد النسخة الخامسة فى ألمانيا بمكتبة جامعة توبنجن فى برلين وقد نسخت قبل سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) ، والسادسة فى انجلترا بالمتحف البريطانى فى لندن نسخت عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . أما فى مصر فهناك نسخة سابعة، فى دار الكتب بالقاهرة كتبت عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) .

ولهذه النســـخة الأخيرة الموجودة بدار الكتب فى القاهرة ، قصة عجيبة تستحق التسجيل . فقد تمت كتابته كما ذكرنا فى جمادى الآخـــرة عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) وقام بنســـخه محمد ابن مسعود بن محمد الســـنجارى المنجم ، وفى عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٤ م) اشترى هـــذا المخطوط الحاجى أحمد بن الحاجى يوسف بن الشيخ عبد الله بن داود آل الشيخ مصلح . وفى عام ١٩١٢ م وقع هذا المخطوط فى يد بائع كتب متجول ، دخل ادارة المطبوعات وعرضه على موظف اسمه محمد مسعود الذى أعطاه بطاقة لأبى الفتوح (باشا) وكيل المعارف فاشتراه بتسع وعشرين جنيها . وقد اعتزم أبو الفتوح أن يخاطب صهره ابراهيم نجيب (باشا) مدير ديوان الأوقاف فى طبعه ، ولكنه توفى قبل تحقيق غرضـــه وابتاعته دار الكتب بأربعين جنيها .

وقد سجل هذه القصـــة فى المخطوط نفســـه موظف ادارة المطبوعات بمناسبة الصدف الغريبة بين اسم الكتاب نسبة الى السلطان مسعود واسم الناسخ محمد بن مسعود واسم منقذ الكتاب محمد مسعود .

وان كان طبع المخطـوط لم يتحقق فى مصر ، الا أن دائرة المعارف العثمانية فى الهند قامت بمجهود ضخم فى سبيل طبع هذا

الكتاب النفيس بعد مقارنة لفظية بين النسخ السبع مع اعتبار الرابعة منها الموجودة فى مكتبة بايزيد باستانبول أساسا للطبع .

ويشتمل القانون المسعودى على احدى عشرة مقالة ، كل منها مقسم الى عدد من الأبواب تبلغ فى مجموعها مائة واثنين وأربعين بابا تغطى جميع الأرصاد والنظريات الفلكية فى ذلك الوقت الى جانب ما توصل اليه علماء الحضارات السابقة والمعاصرون للبيرونى ، مع نقد العالم المطلع وتفنيد الآراء دون تحيز أو محاباة ، فنجده فى كل موضع يعطى كل ذى حق حقه . فاذا استشكل عليه أمر من الأمور أو وجد تضاربا بين نتائج العلماء الآخرين ، أعاد الأرصاد أو الحسابات بنفسه مرة أو مرات ، ثم لا يستأثر بالفضل كله . بل انه أحيانا لا يتعصب لدقة أرصاده أو قياساته ، فنجده يؤثر عليهـا نتائج الآخرين ممن اطمأن الى أمانتهم العلمية أو دقة آلاتهم . ولنضرب لذلك مثلا حديثه عن قياسات محيط الأرض أو نصف قطرها ، اذ وجد تضاربا واضحا بين قياسات علماء اليونان وعلماء الهند وعلماء العرب أيام المأمون . وكان علماء المأمون قد كونوا فرقتين قامتا بقياس جزء على سطح الأرض يقابل درجة واحدة عند مركزها ومنها استنتجوا طول المحيط ، وكانت أمنية البيرونى أن يحذو حذوهم فاختار قاعا صفصفا فى أرض جرجان ، ولكنه عجز عن اجتياز المفاوز المتعبة فضلا عن حاجته الى العون . ولذا عدل عن هذا الأمر حتى كان فى الهند ، فوجد جبلا مشرفا على صحراء مستوية الوجه ، وهناك استخدم طريقة جديدة فى قياس محيط الأرض ، اذ صعد الى قمة الجبل وقاس زاوية انخفاض دائرة الأفق كما قاس ارتفاع الجبل بطريقة حسابية ومن ذلك استنتج نصف قطر الأرض . وكانت النتيجة التى وصل اليها البيرونى قريبة من قياسات علماء المأمون ،ولكنه لم يتمسك بها ولم يركب مركب الغرور واعترف بالفضل لعلماء المأمون :

« فقد قارب ذلك وجود القوم ، بل لاصقه ، وسكن القلب الى

ما ذكروه فاستعملناه ، اذ كانت آلاتهم أدق ، وتعبهم فى تحصيله أشد وأشق » .

وقد وضع البيرونى نصب عينيه الا يأخذ النظريات والأرصاد قضية مسلما بها ، بل ناقش البراهين والأدلة وأضاف اليها من عندياته ، وأعاد الأرصـاد أكثر من مرة لكى يستوثق من صحة النتائج . وكان البيرونى يدعو الى مناقشة آرائه وتصحيح ما يكون قد وقع فيه من زلل أو نسيان . وفى ذلك يقول فى مقدمة الكتاب :

« ولم أسلك فيه مسلك من تقدمنى من أفاضل المجتهدين من طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا الترديد الى قضـايا التقليد ، باقتصارهم على الأوضاع الزيجية ، وتعميتهم خير مازاولوه من عمل ، وطيهم عنه كيفيـة ما أصلوه من أصل ، حتى أحوجوا المتأخر عنهم فى بعضها الى استئناف التعليل ، وفى بعضها الى تكلف الانتقاد والتضليل ، اذ كان خلد فيهـا كل سهو يدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة ، وقلة اهتداء مستعمليها بعدهم الى المحجة . وانما فعلت ماهو واجب على كل انسـان أن يعمله فى صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة ، وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة ، وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة فيه من مقادير الحركات وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده ، وقرنت بكل عمل فى كل باب من علله ، وذكر ماتوليت من عمله ، ما يبعد به المتأمل عن تقليدى فيه ويفتتح له باب الاسـتصواب لما أصبت فيه ، أو الاصـلاح لما زللت عنه أو سهوت فى حسابه » .

يكفى أن نقرأ هذه الفقرة من مقدمة كتابه ، حتى نعرف كل شىء عن طبيعة البيرونى وطريقة تفكيره ومعالجته للأمور ، والسبيل القويم للبحث العلمى أو لتسجيل المعلومات العلمية بحيث تفيد الآخرين . ففى بداية عصر النهضة فى القرن الثامن الميلادى ، ترجم

العرب مؤلفات الهند واليونان وغيرهم ، ثم أخذوا ما فيها قضية مسلما بها حتى ولو كان ينقصها البراهين والأدلة .. بل ان بعضهم اقتصر على نقل النتائج دون التفاصيل ، فاضطر كثير ممن أتوا بعدهم الى الرجوع الى البداية لبرهنة كل خطوة ، بينما سلك آخرون مسلك المحاكاة والتقليد وتسجيل ما اطلعوا عليه بما يحتويه من أخطاء أو سهو وقع فيه الناقلون . والبيرونى هنا يبين واجب كل انسان فى مجال عمله .. من تقدير السابقين له المجتهدين فى عمله ، وتصحيح ما يجد من أخطاء دون وجل أو خوف . ثم يشير الى أنه اتبع ذلك فى كتابه ، وقرن كل خطوة بالبراهين وتوضيح الأرصاد المؤدية اليها حتى لا يحاكيه احد محاكاة الببغاء بل يفهم كل ما يقال ، فان وجده صوابا تقبله وهو مطمئن ، وان صادف خطأ أو سهوا أصلحه .

يحتوى كتاب القانون المسعودى على عدة موضوعات ، اما فلكية بحتة واما تتصل بذلك العلم من قريب أو بعيد ، مثل الأعياد والمناسبات الدينية عند مختلف الأمم والشعوب ، وحساب المثلثات ، وتعيين أطوال البلدان وعروضها . ويكفينا فى هذا المجال اشارة عابرة الى محتوياته مع ابراز أهم النظريات والابتكارات التى ابتدعها البيرونى .

يبدأ الكتاب بمناقشة هيئة السماء وشكل الأرض ومكانها فى الكون وحجمها بالنسبة اليه وأنواع حركات الأجرام السماوية . وقد اعتمد فيما ذكره ـ مثلما فعل علماء العرب وغيرهم ـ على كتاب المجسطى لبطلميوس ، مع نقد لآرائه فى بعض النواحى . فنجده مثلا يعارض بعض براهين بطلميوس لاثبات أن السماء كروية الشكل :

« ثم استدل بطلميوس على كرية السماء بقياسات طبيعية ، ومن الطرق الأولى مأخوذة ، ولكل صناعة منهج وقانون لا يستحكم

عليه ما هو خارج عنها . ولذلك كان ما أورده مما هو خارج عن هذه الصناعة اقتناعيا غير ضرورى ، وما وجدنا الى الصناعة سلما ثابتا على مناهجه لم ينحرف عنه الى ما هو خارج من طرقه ومدارجه . فمما ذكر ، وجود السلاسة فى حركة الكرة أكثر ، وهى لعمرى كذلك فى كل متحرك على محوره ، والكرة مع سائر الأشكال المجسمة فى ذلك شرع واحد ، لأن هذه الحالة تلزم من جهة المحور دون الشكل . ومنها فضل الكرة على سائر الأشكال المضلعة فى العظم والسعة ، ثم احاطة السماء بما فى ضمنها ، فهى لذلك كرة . وهذا مطرد فى الأشكال التى تساوى محيطاتها محيطات الكرة بالمساحة ، وليس بمانع عن احاطة شكل مستقيم السطوح بالكرة اذا فضلت مساحة احاطته ، وتكون حركتهما معا على محور واحد » ..

وكان القدماء يعتبرون الأرض فى مركز الكون أو قريبة منه ، وظلت تلك الفكرة سائدة ردحا طويلا من الزمن حتى عهد قريب . وقد أخذ العرب بهذا الرأى ودونوه فى كتبهم مع سياق البراهين التى تؤيد ذلك . وما يهمنا فى هذا المجال هى عبارة وردت على لسان البيرونى تشير الى معرفة وجود قوى الجاذبية بين الأجسام قبل أن يكتشفها نيوتن فى القرن السابع عشر الميلادى :

« ثم الأقاويل فى سبب هذا الاضطرار كثيرة ، منها جذب السماء الأرض من كل النواحى بالسواء . وذلك يبطل بالجزء ، ومنها المنفصل عنها ، فان ما يلحقه من الجذب من جهة الأرض أفتر ، ويجب أن تستلبه السماء الى نفسها من غير تلك الجهة حتى يطير اليها . ولم نشاهد ذلك قط لصخرة مثلا أو مدرة ، ولم يشعر بقوة هذا الجذب انسان .. فلا محالة أن الخلاء الذى فى بطن الأرض يمسك الناس حواليها . أليس أحد المتقاطرين من سكانها كالمستقر على القرار ، عارف من نفسه حال الاستواء ، والآخر كالمشدود كرها على السقف يعرف من نفسه الانتكاس والاضطرار ، وليس أحدهما اذا انتقل الى مكان الآخر بواجد فيه غير ما كان

يجده ذاك ، ولكن الناس فى جميع مواضع الأرض على حالة واحدة ليس عندهم مما ذكرنا خبر » .

ثم يسوق البيرونى الأدلة على كروية الأرض بظهور أعالى الجبال أولا للسائر نحوها ، ثم ظهور باقيها بالتدريج حتى قواعدها ، وبالمثل رؤية سارية السفينة فى البداية ثم يبدو باقيها شيئا فشيئا كلما اقتربت .

وبعد ذلك يناقش فكرة دوران الأرض حول محورها ، وكان الرأى السائد حينئذ هو عدم وجود هذه الحركة واعتبار أن السماء تدور بما فيها من أجرام مرة كل يوم . وقد أيد البيرونى هذا الرأى، ولكنه خلال مناقشته للبراهين والأدلة ، أشار الى وجود عالم عربى كبير – لم يذكر اسمه – يرى أن الأرض هى التى تدور حول محورها ، وسرد وجهة نظر هذا العالم والاستدلالات على صحة رأيه .. وهى استدلالات نأخذ بها فى العلم الحديث . فمن المعروف أنه لو كانت الأرض ساكنة ، وسقط حجر من علو شاهق لاتخذ مسارا راسيا يمتد الى مركز الأرض . ولكن اذا كانت الأرض متحركة ، أصبح للحجر سرعتين ، احداهما سرعة الهبوط راسيا نحو المركز والأخرى سرعة أفقية مكتسبة من حركة الأرض .. وتكون النتيجة وصول الحجر منحرفا نحو المشرق . وقد أمكن قياس ذلك الانحراف فى العصر الحديث ، ولكن القدماء لم يتبينوه لصغر مقداره . ويجدر بنا هنا أن نشير الى تلك الفقرة التى أوردها البيرونى فى كتابه :

« واما أنا فقد شاهدت احد من مال الى نصرة هذا الرأى من المبرزين فى علم الهيئة ، لم يلتزم نزول الثقيل الى الأرض على القطر عمودا على وجهها ، بل محرفا على زوايا مختلفة .. لأن الرجل رأى للثقيل المنفصل عن الأرض حركتين : احداهما دورية لما فى طبيعة الجزء من ثقيل الكل فى خواصه ، والأخرى مستقيمة لانجذابه الى معدنه .. » .

يلى ذلك بحث فى وجود حركة ذاتية للقمر والشمس والكواكب فى مدارات خاصة بها ، ولكنه اتبع الرأى السائد بأن هذه المدارات هى حول الأرض وليست حول الشمس :

وفى التعريف بالاحداثيات والدوائر السماوية ، لم يكتف البيرونى بذكر أسمائها ، بل أشار الى أسباب اختيار تلك الأسماء . فمثلا يرجع تسميته المدار أو الفلك الى التشبيه بفلكة المغزل الدائر ، ومعدل النهار أو الدائرة السماوية المسامتة لخط الاستواء أطلق عليه هذا الاسم لأن الشمس اذا وافته ودارت عليه اعتدل النهار وتساوى مع الليل .

ثم يناقش البيرونى تعريف اليوم ، والليل ، والنهار . فالشمس هى أسطع الأجرام السماوية واظهرها ولذا اتخذت حركتها للقياسات الزمنية . وأول الحركات المتكررة للشمس هى الشروق والغروب ، فاعتبر طول اليوم ما بين الشروق أو الغروب وما بين نظيره . فاذا ما عرفنا طول تلك الفترة ، أمكننا أن نعتبر اليوم بين اى وقت وبين مثله . ويشير البيرونى الى طول النهار فقط ، فيفرق بين الطبع والأحساس وبين العادات والأوضاع فالطبع والاحساس يكون النهار هو مدة كون الشمس فوق الأرض أو الفترة ما بين الشروق والغروب ، أما بالعادات والأوضاع ، فمن الناس من يأخذ النهار ابتداء من ظهور اماراته وتهيؤ الطباع للحركة والانتشار ويأخذ الليل من اقبال علاماته وميل الطباع الى السكون وطلب المأوى وبذلك جعلوا الاصباح والامساك متقدمين للطلوع والغروب . ومن الناس من أخرج ما بين طلوعى الفجر والشمس وما بين مغيبى الشمس والشفق من جملة النهار والليل مثلما فعل براهمة الهند .

ويستطرد البيرونى فى مناقشة الاختلاف بين طولى الليل والنهار ، ثم ينتقل الى التغير فى طول اليوم نفسه ، أى التغير فى طول الفترة بين الشروق والشروق أو بين الغروب والعروب ، وهو تغير طفيف لا يحس به الشخص العادى .

وانتقل من ذلك الى تحديد الشهر والسنة سواء عن طريق الشمس أو القمر . فبدأ بالاشارة الى السبب فى اتخاذ وحدة قدرها سبعة أيام تسمى بالأسبوع ، وذلك لأن عدد الكواكب عند الأقدمين كان سبعة وهى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل ، فجعل لكل كوكب يوما يخصـــه ، بل ان بعض الأمـم استخدمت أسماء الكواكب وأطلقتها على الأيام . والسنة الشمسية هى سنة طبيعية لأنها تقاس بحركة الشمس الظاهرية ابتداء من نقطة على مسارها الظاهرى حتى عودتها الى تلك النقطة بينما الشهر هو شهر وضعى لأننا نقسم السنة الشمسية الى اثنى عشر جزءا نسمى كل منها شهرا . أما الحال بالنسبة الى القمر فهو عكس الشمس ، حيث نجد أن الشهر القمرى هو الطبيعى لأنه من مولد الهلال الى مثله بينما السنة القمرية وضعية اذ تؤخذ اثنى عشر شهرا قمريا .

ينتقل البيرونى بعد ذلك الى السنين والشهور وأسمائها عند مختلف الأمم . فيقول ان من استخدم السنة الشمسية هم الروم والأفرنجة والقبط والسريانيون والفـرس والسـغد ، ومستعملو السنة القمرية هم الأمم الاسلامية ، بينما مزجت بعض الأمم بين النوعين مثل الهند وأتراك المشرق والصين وعرب الجاهلية واليهود. ويسجل بعد ذلك أسماء الشهور عند مختلف الأمم وعدد أيام كل شهر منها ومبدأ حساب السنة عندهم . فمثلا ، عند الهند ــ وهم الذين مزجوا بين السنتين الشمسية والقمرية ــ كان مبدأ العـام هو الهـلال الذى يسبق الاعتـــدال الربيعى ، واعتبروا السنة اثنى عشر شهرا كل منها ثلاثون يوما ، وأحيانا ثلاثة عشر شهرا يتكرر فيها أحد الشهور .

وتحدث بعد ذلك عن أسباب كثرة التواريخ بين أجيال الأمـة الواحدة ، فنجده يقول فى ذلك :

« ان أجزاء الزمان من الأيام والشهور والأعوام ، متى قلت عدتها ، لم يتزايد عند التزايد حفظها ، وخاصة اذا كان استعمال نفر مجتمعين محتاجين اليها رقيبا عليها . فأما اذا طال الأمر ، وازدحم العدد ، وتباعد أولئك النفر ، فانها تكون للنسيان معرضة، ولوقوع الاختلاف فيها متهيئة . وهـــذا سبب كثرة التواريخ وافتنانها بين فرقة واحدة ، فضلا عن الفرق . والتــــاريخ وقت مشهور بين أمة أو أمم ، تعدل الأزمنة بالأيام والشهور والسنين من عنده .. » .

ونجد المقالة الثانية من القانون المسعودى محتوية على عدد من الموضوعات الهامة ، مثل حساب التقاويم وتعيين أوائل الشـــهور والسنين ، وتواريخ الملوك والأنبياء والخلفاء والأئمة والأعيـــاد والمواسم الدينية عند مختلف الديانات والأمم . وقد أفرد البيرونى فى تلك المقالة بابا ناقش فيه الشبهات فى تحـــديد بداية التواريخ وما حدث فيها من اختلافات . فأشار مثلا الى التقويم المعروف بتاريخ الاسكندر قائلا :

« ونقول فى تاريخ (الاسكندر) أن الجمهور يعتقدون فيه ظنا أنه محسوب من أول ملكه ، على مثال تاريخ (يزدجرد) من أول سنة قيامه ، ويذكرون فى علل الزيجات أن أول السنة التى ملك فيها (الاسكندر) كان يوم الاثنين ، وحين وجدوا (بطاميوس) أرخ بعض أرصاده بممات (الاسكندر) وكان ذلك التاريخ متقدما للذى ظنوه لأول ملكه ، ظنوه اسكندرا آخر قبل المشهور . بل فاجأتهم طامة أخرى ، وهى أن الكلدانيين أرخوا بأول ملكه فى بلاد (ايلادا) على ما تبين من النوع السابع من المقالة التاسعة فى كتاب المجسطى اذا قيس ما ذكر فيه الى تاريخ ممات (الاسكندر) ، فنسبوا ذلك التاريخ الى والده (فيلفس) كما نسب بعضهم تاريخ مماته الى (فيلفس) أيضا . وانما أتوا فى ذلك من قلة عنايتهم بتواريخ أهل المغرب وأخبار اليونانيين التى لم يخرج منها الى العربى الا قليل .

فليعلم لذلك أن (فيلفس) ملك (ماقيدونيا) بعد موت (فراديقوس) الحادى والعشرين من ملوكهم سبع وعشرين سنة ، وولد له ابنه (الاسكندر) من (أولمفيدا) على ثمان من ملكه واثنتى عشرة من ملك (أرطخشيشت أوكوس) أى (اردشير الأسود) ببابل . وملك (الاسكندر) بعد أبيه اثنتى عشرة سنة وسبعة أشهر ، منها ست الى قتله (داريوش) والباقى فى غزو بلاد المشرق . ولما مات ببابل عند منصرفه ، انقسمت مملكته أثلاثا ، فصار منها (ماقيدونيا) وما والاها الى أخيه (فيلفس ايراندلوس) وهو المؤرخ به فى قانون زيج (ثاون) وملكه بعد الخلافة ووفاة (الاسكندر) فى وقت واحد . وصار مصر الاسكندرية وأرض المغرب الى البطالسة الذين أولهم (بطلميوس بن لاغوس) ، وصارت سورية وآسيا أعنى الشام والعراق الى (انطياخوس) بانى (انطاكيـــة) ، وتواريخ هؤلاء من عند ممات الاسكندر . وكان (سولوقس) بتقاطر تشارك (انطياخوس) الى أن تفرد بالملك عند تمام اثنتى عشرة سنة من ملك ابن (لاغوس) . ومن هنا ابتدأ اليونانيون بالتاريخ ، واشتهر بالاسكندر ، وانما هو من السنة الثالثة عشرة من مماته » .

ونجد فى هذه المقالة جدولا للأنبياء والملوك والخلفاء والأئمة من عهد آدم عليه السلام وتاريخ تولى كل منهم اعتبارا من آدم ، وسجل أمام كل منهم نبذة مختصرة عما تناقله التاريخ عنه . فأمام آدم وأبنائه كتب يقول ان قابيل ولد بعد سبعين سنة من هبوطه الى الأرض ، وهابيل بعد ذلك بسبع سنين وقتل وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . وقد حرص اليقطى من أولاد آدم على العود الى الجنة فتزهدوا وانقطعوا للعبادة ، وبعد حوالى خمســـمائة عام تملكهم اليأس من الرجوع الى الجنة فنزلوا الى الناس واشتغلوا باللهو ومخالطة بنات قايين حتى أصبحوا جبابرة أفسدوا الأرض بتنازعهم وتقاتلهم .

وقال عن نمرود الجبار بن كوس بن حام بن نوح ان التاج عقد

على رأسه وهو أول ملك بعد الطوفان ، مكث فى بناء الصرح أربعين سنة ، وقال قوم انه هلك تحت الهرم بينما ذكر آخرون أنه رحل الى أرض الموصل .

وقال عن ملوك أثور الموصل أن بايوس (٣٢٨٠ عام بعد آدم) ملك المشرق وبنى الحصون والهياكل ، وفى أيامه ولد ابراهيم عليه السلام ، وأن راميس ابتلى به ابراهيم فهرب منه الى ناحية حران مع عشيرته وبعد ذلك بحوالى ثلاثين عاما ـ فى أيام أريوس ـ ولد اسحاق واسماعيل وفى أيام ماركلوس (٣٧٣٠ بعد آدم) تبنت متريس زوجة كيفارا ملك منف بموسى عليه السلام وحمته من زوجها فرعون .

وذكر عن أهـــل الكهف ، أن الملك دقيقوس ملك الـــروم (٥٧٤٣ بعد آدم) قتل خلقا من النصـــارى ومنه هرب الفتية السبعة وناموا فى الكهف . ثم جـــاء ذكرهم بعد ذلك أيام ملوك بيزنطة ، فيذكر أنه فى عهد ثاوذوسيوس الثانى (٥٩٤١ بعد آدم) غزت الفرس الروم وظهر نسطور صاحب المذهب وانتبه أصحاب الكهف من النوم فخرجوا .

ووصل فى حديثه عن ملوك بيزنطة الى هرقل (٦١١٢ بعد آدم) وكانت الهجرة فى أيامه . ثم أورد بعد ذلك جدولا للهجرة والخلفاء والملوك والأئمة وأثبت فيه كنية كل منهم والتاريخ الهجرى لبداية ولايته ومدة تلك الولاية . فنجد فى ذلك الجدول أن النبى صلى الله عليه وسلم وصل الى المدينة بعد شهرين وثمانية أيام وظل فيها تسع سنوات وأحد عشرا شهرا واثنين وعشرين يوما .

ومع جداول المواسم الدينية والأعياد والأيام الشهيرة عند المسلمين والمسيحيين واليهود والفرس وغيرهم ، تحدث البيرونى عن أصل تلك الأعياد وأسبابها . فمن الأيام الشهيرة عند المسلمين نختار ما يلى :

١٠ المحرم : عاشوراء منقول من عاشور فى أول شهور اليهود وفيه أيضا مقتل الحسين بن على عليه السلام بكربلاء .

١٦ المحرم : صرف القبيلة الى بيت المقدس فى أول الاسلام ثمانية عشر شهرا .

١٧ المحرم : قدوم الحبشة أصـــحاب الفيل مكة لتخريب الكعبة .

* * *

١٦ صفر : ادخال رأس الحسين بن على الى دمشق .

٢٠ صفر : ابتداء المرض الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢٤ صفر : رد رأس الحسين عليه السلام الى كربلاء .

* * *

٨ ربيع الأول : قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينـــة بالهجرة .

١٢ ربيع الأول : وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

* * *

٨ ربيع الآخر : احتراق الكعبة أيام محاصرة الحجاج عبد الله ابن الزبير .

* * *

٢٦ رجب : مبعث النبى عليه السلام الى كافة الناس .

٢٧ رجب : ليلة المعراج والاسراء الى بيت المقدس .

* * *

٣ شعبان : ولادة الحسين بن على عليهما السلام .

١٥ شعبان : ليلة البراءة المعظمة ويسمى أيضا ليلة الصك .

١٦ شعبان : صرف القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة لصلاة العصر .

* * *

١٦ رمضان : ضرب عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله عليه على بن أبى طالب عليه السلام وقت صلاة الفجر .

١٧ رمضان : وقعة بدر والنصر الأول المنزل .

١٩ رمضان : فتح مكة عنوة .

٢١ رمضان : وفاة على بن أبى طالب عليه السلام من الضربة .

* * *

وعند الحديث عن الأعيان وأشهر الأيام فى المسيحية ، أردف الجدول بتفسير موجز عن أسباب وأصل تلك الأعياد . ونجده قد فرق بين ثلاثة مذاهب في المسيحية تختلف أحيانا فى تحديد موعد العيد ، وأشار الى ذلك قبل أن يقدم الجدول للقارىء !

« وفرق النصارى المشهورة هم اليعاقبة والملكية والنسطورية ، ولهم فى السنة أيام معلومة من صيام وأعياد وذكارين . وهى على ثلاثة أصناف : أحدها أيام بعينها مفروضة فى شهور السريانيين وأكثر ذلك للملكية ، وتكثر جـــدا ، وتختلف فى كل بقعة بحسب مشاهيرهم فيها . والصنف الثانى أيام بعينها مفروضة فى الأسبوع ، مترددة فى مدة أسبوع من شهور السريانيين وأكثر ذلك للنسطورية .

والصنف الثالث أيام بعينها مفروضـــة في الأسبوع متعلقة بالصوم الكبير وموازية له ، وهى كالصنف الثانى ، الا أن ترددها

من الشهور فى مدة أكثر من أسبوع ، وأظهر ذلك مشترك بين الفرق الثلاث ، وما لا يكون مشتركا فأكثره للنسطورية .

ونحن نريد أن نذكر منها الأشهر فالأشهر ، ونبتدىء بالصنف الأول ، فما نعلم أنه مشترك لهم نجعل حرف الشين علامته ، وعلامة ما ينفرد به اليعاقبة حرف العين ، والميم للملكية ، والطاء للنسطورية ، بحسب ما سمعناه أو وجدناه ولم نسمعه » .

وننقل ها هنا جزءا من جدول الأعياد والصيام والذكارين :

أول تشرين الأول : ذكران ابراهيم الخليل عليه السلام .

٢١ تشرين أول : ذكران مارت مريم .

٢٦ تشرين الأول : ذكران وضع رأس يحيى بن زكريا المعمدان فى القبر .

* * *

٢٦ تشرين الآخر : ابتداء صوم الميلاد وهو أربعون يوما قبله .

* * *

٢١ كانون الأول : ذكران دانيال النبى عليه السلام .

٢٢ كانون الأول : ذكران يوسف دافن جسد المسيح فى قبره .

٢٥ كانون الأول : يلدا وهو ليلة ميلاد المسيح عليه السلام .

* * *

٦ كانون الآخر : عيد الدنح وتعميد يحيى المسيح فى نهر الأردن .

* * *

٢ شباط : عيد الشمع وأول ادخال المسيح الى الهيكل .

* * *

٢٥ آذار : عيد السبار وهو بشارة مريم بحمل عيسى عليه السلام .

* * *

٦ أيار : ذكران أيوب الصديق المبتلى عليه السلام .
٧ أيار : عيد ظهور الصليب على السماء ببيت المقدس .

* * *

١٢ تموز : ظهور المسيح لبولس .
١٦ تموز : ذكران مرجورجس الشهيد .
٣٠ تموز : عيد كنيسة مريم .

* * *

أول آب : أول صوم وفاة مريم وهو خمسة عشر يوما .
١٥ آب : عيد وفاة مريم البتول فى جبل صهيون .

* * *

٣ أيلول : ذكران يوشع بن النون .
٨ أيلول : ذكران مولد مريم البتول .
١٣ أيلول : عيد كنيسة القيامة ببيت المقدس .

* * *

ويقول البيرونى عن الذكارين والأعياد :

« ومن خص منهم بذكران فانما هو لحال تميزه عن سائرهم من قبل باستشهاد ، أو فضل فى علم أو اجتهاد ، حتى يذكرونه فى ذلك اليوم فى البيعة ، ويسمون باسمه كل مولود يولد فيه أو بعده الى الذكران الآخر ، والعيد رتبة أجل من الذكران .

واذا تقرر ذلك ، قلنا ان صوم نينوى هو بسبب مكث يونان وهو يونس فى بطن الحوت ، وذلك عندهم ثلاثة أيام . ونينوى هذه ليست التى بالموصل ولكنها بأرض الشام . والفاروقة هى منتصف الصوم المفرق بين نصفيه . ولما أقبل المسيح الى بيت المقدس ، أحيا العـــار والميت فى الجمعة فوسمت ، ثم دخله راكبا الحمار والناس حوله يسبحون ، فسمى ذلك اليوم سعانين وهو التسبيح . ويوم الأربعاء غسل أرجل تلامذته وخدمهم معرفا اياهم كيفية التواضع فى الرياسة ، وكذلك يفعل فيه كبارهم . وافتتح يوم الخميس فى عرفه بخبز وخمر ، وهو مخفى من اليهود حتى سعى اليهم يهودا سحر يوكاثرشوه ، فأخذوه برغم النصارى ليلة الجمعة وعذبوه فيها ثم صلبوه يوم الجمعة على ثلاث ساعات ، وقضى نحبه على تسع ســـــاعات ، فدفنه يوسف الرامشاتى فى قبر كان أعده لنفسه ، ونشر من الموتى ليلة السبت بحلوله بطن الأرض فعاشوا ودخلوا بيت المقدس ، ثم انبعث صبيحة الأحـــد ومكث ، وظهر لتلاميذه الى يوم الشلاقا الذى تسلق فيه الى السماء وهم يرونه ، ووعدهم ارسال الفارقليط وهو روح القدس اليهم » ..

يتضح من ذلك تعمقه فى مختلف الديانات ، ودراسته لعاداتهم وأعيادهم وما كتب عنها ليس فقط باللغة العـــربية بل باللغات الأخرى ، وبحثه فى أصل كل كلمة أو اسم يصادفه :

« والانجيل تفسيره البشارة معرب من انكليون ، ويتضمن أخبار المسيح من ولادته الى انقراضه . وقد كتبه أربعة نفر منهم متباينى الأمكنة واللغة . فهم متى كتب بفلســـطين بالعبرانية ، ومرقوس بالروم بالرومية ، ولوقا بالاسكندرية باليونانية ، ويوحنا بافسيس باليونانية ، ثم جمعت الأربعة الأناجيل ــ وان اختلفت لفظا واتفقت معنى ــ فى دفتين وسمى مجموعهما الانجيل »

ويستطرد مفسرا معنى أعياد المسيحيين فيقول :

« وأما ظهور الصليب ، فانه ظهر على السماء كأنه من أحداث الجو ، فقيل لقسطنطين : ان علمت به رايتك ظفرت . ففعل ، وكان ذلك سبب تنصره . ومن حينئــــذ جرى رسمهم به فى الجيوش » .

« وأما عيد الورد ، فان والدة يحيى بن زكريا اتحفت مريم فيه بورد ، فهم يعيدونه باسمه . وأما عيد السنابل ، فانهم يصلبون على باكورة الحنطة ويدعون لها بالبركة ، وكذلك العنب . وأما عيد طرطابور ، فان المسيح تجلى فيه للتلامذة بهذا الجبل من بين الغمام ، وأظهر معه موسى النبى والياس الحى . وأما عيد الصليب ، فان هيلانى والدة قسطنطين المظفر قصدت بيت المقدس على تنصرها ، وطلبت خشبة الصليب حتى وجدتها مع خشبتى اللصين المصلوبين مع المسيح ، ولم يتميز لها الا بأن وضعتها على ميت فحيى على ما ذكروا . ثم عيدت النسطورية يوم وجودها اياه ، والملكية يوم أظهرته للناس » .

ومن خلال حديث البيرونى عن الأعياد ، نستطيع أن نعرف شيئا عن عادات الأمم وتقاليدها ومجتمعها . فلنأخذ مثلا ما يقول عن أعياد الفرس :

« نقول فى النوروز ان اســـمه ينبى عن معناه ، أعنى اليوم الجديد ، لأنه مفتتح السنة وغرة الحول . وموضوعه فى الأصــل أطول يوم فى السنة . وانما خص بذلك ، لأن الوقوف عليه من اظلال الأوتاد على الحيطان ، ومن ممر الضياء الداخل من الثقوب الى البيوت ، يسهل على من أراده من غير ارتياض بعلم الهيئة . وفيه افتتاح الخراج بسبب ادراك الغلات .

وزعمت الفرس أن جمشيد ركب فيه العجلة ، ونهض الى ناحية الجنوب لقتال الشياطين ، وكأنهم يعنون السودان والزنج . . واليوم التاسع عشر من فروردين ماه ، عيد بسبب موافقته فى الاسم اسم شهرة ، وهذه عادتهم فى كل شهر أن يعيــدوا اليوم الذى

يسمى باسم ذلك الشهر ويعظموه .. وفى التيركان ، تغتسل الفرس وتكنس المطابخ والكوانين . أما كسرها ، فبسبب تخلص الناس من حصار افراسياب ومضى كل واحد الى عمله . ولمثله يطبخون الحنطة مع الفواكة الفجة ، اذ كانوا غير قادرين على طحن الحنطة .

وأما الاغتسال ، فقالوا أن كيخسرو فى منصرفه من حرب افراسياب نزل على عين ماء منفردا عن عسكره فأغمى عليه للتعب، ووصل اليه (ويجن بن كوذرذ) فرش الماء عليه حتى أفاق ، وجرى اسم الاغتسال من وقتئذ تبركا .. وأما الفروردیجان ، فانها أيام خمسة يصنعون فيها مآكل ومشارب لأرواح موتاهم ، لأن هذه الأيام موسومة بتربية الروح ، وهى الأخيرة من آبان ماه . لكن المسترقة (الأيام الخمسة الزائدة على ٣٦٠ يوم) لما نقلت فى الكبيسة الثامنة بعد زرادشت الى آخر آبان ماه ، تراخت المدة على ذلك حتى عدت منه ، واختلفت فى الفروردیجان أهى الخمسة الأخيرة من آبان ماه أم هى الخمسة المسترقة . وكان يهمهم ذلك فى دينهم ، فاحتاطوا بأن أخذوا فيهما بكلتيهما ، وجعلوا الفروردیجان عشرة أيام .

وأما بهارجشن ، فلأنه مبدأ الربيع فى أيام الأكاسرة . وكان يركب فيه رجل كوسجا ، يتروح بمروحة تبشيرا بادبار البرد وباقبال الحر ..وأما سيرسوا ، فهم يتناولون فيه كل طعام بثوم لدفع مضار الشياطين .. وأما بتيكان ، فانهم كانوا يعملون فيه تماثيل انس من طين وعجين ، وينصبونها على مداخل الأبواب . وترك ذلك الآن لما فيه من السمة المنهى عنها والتشبيه بعبادة الأوثان .

وأما ليلة كاوكيل ، وهى التى بعد اليوم الخامس عشر : فانهم يزينون فيها ثورا ويعيدون عليه . وزعموا فى سببها أنه ركوب افريدون الثور بعد فطامه ، وانه اتفق فيه اطلاق بقر أثفيان والد افريدون ، التى كان بيوراسب منعه عنها وضيق عليها . فعيد

الناس ذلك ، لتعطف أثفيان عليهم ، وحسن تفقده لذوى الخلة منهم .

وأما سبب رفع النيران فى الليلة التى تتلو اليوم العاشر ، فقد ذكروا أن أرمايبل وزير بيوراسب كان خيرا ، يستبقى من الناس الذين كان صاحبه يأمره بقتلهم فى أمكنة اسبقائه ، ويخفيهم فى حدود دنياوند . وحين ظفر أفريدون به ، تقرب اليه بذلك من فعله . فلم يصدقه دون أن يوجهه مع ثقاته ليشاهدوا المستبقين ، ووافوهم ليلة هذا اليوم . فتقدم أرمايبل اليهم بأن يرفع لكل واحد منهم نارا على ظهر داره ، واستنار الجو من كثرة النيران . فولاه حينئذ دنياوند ، ولقبه بمصمغان .. فهذه علل ما ذكرته من أيام الفرس على ما حصل لى من جهة العارفين بها ، وفوق كل ذى علم عليم » .

وقبل أن نختتم هذه المقالة ، نود أن نشير الى ما تحتويه من جداول عديدة لحساب التقاويم المختلفة وتعيين أوائل السنين والشهور. فاذا كان ذلك ممكنا فى حالة السنين والشهور الوضعية ، المحددة أطوالها على وجه الدقة ، فانه يصعب تطبيقه فى حالة السنين والشهور الطبيعية وخاصة تلك التى تعتمد على الأهلة . ولكن البيرونى أورد جدولا اجتهاديا لتعيين أوائل الشهور العربية بطريقة غاية فى البساطة ، ويمكننا استخدامه لأى عام هجرى دون أن نجاوز الحقيقة بيوم أو يومين على الأكثر . ولعل القارىء يجد متعة اذا وضعنا هذا الجدول بين يديه وأوضحنا له كيفية استخدامه. ونلفت النظر الى أن السنين المثبتة فى الأعمدة الرأسية تزيد فى كل خطوة ثلاثين عاما فاذا وصلنا الى نهاية العمود أكملنا الباقى فى العمود التالى له . ويقف جدول البيرونى عند العام الهجرى ٨١١ هـ ، الا أننا زدنا عليه عمودين حسب القاعدة التى ذكرناها ، كى نصل الى الأعوام الهجرية الحالية .

جدول أوائل شهور العرب

ادوار السنين المجموعة							علامة المحرم
١	٢١١	٤٢١	٦٣١	٨٤١	١٠٥١	١٢٦١	٦
٣١	٢٤١	٤٥١	٦٦١	٨٧١	١٠٨١	١٢٩١	٤
٦١	٢٧١	٤٨١	٦٩١	٩٠١	١١١١	١٣٢١	٢
٩١	٣٠١	٥١١	٧٢١	٩٣١	١١٤٠	١٣٥١	٧
١٢١	٣٣١	٥٤١	٧٥١	٩٦١	١١٧١	١٣٨١	٥
١٥١	٣٦١	٥٧١	٧٨١	٩٩١	١٢٠١	١٤١١	٣
١٨١	٣٩١	٦٠١	٨١١	١٠٢١	١٢٣١	١٤٤١	١

السنون المبسوطة	علامة المحرم	السنون المبسوطة	علامة المحرم	السنون المبسوطة	علامة المحرم	السنون المبسوطة	علامة المحرم
١	٣	٩	٤	١٧	٤	٢٥	٤
٢	٤	١٠	٢	١٨	٢	٢٦	٢
٣	٦	١١	٦	١٩	٦	٢٧	٦
٤	٣	١٢	٣	٢٠	٣	٢٨	٣
٥	١	١٣	١	٢١	١	٢٩	١
٦	٥	١٤	٥	٢٢	٥	٣٠	٥
٧	٣	١٥	٤	٢٣	٢		
٨	٤	١٦	٧	٢٤	٧		

الشهور العربية	زيادات الشهور
صفر ـ رجب ـ ذو الحجة	٢
ربيع الأول ـ شعبان	٣
ربيع الآخر ـ رمضان	٤
جمادى الأولى ـ شوال	٦
جمادى الآخرة	٧
ذو القعدة	١

فلنفرض أننا نريد تعيين أول شهر رمضان عام ١٣٨٧ هـ . اذا نظرنا فى الجدول ، وجدنا فى أدوار السنين المجموعة عام ١٣٨١ أقرب الى العام المطلوب والفرق بينهما ست سنوات . وأمام عام ١٣٨١ نجد علامة المحرم = ٥ ، وأمام الست سنوات فى جدول السنين المبسوطة نجد علامة المحرم = ٥ . فيكون المجموع ١٠ لأول المحرم ، أى عشرة أيام ابتداء من يوم الأحد .. أو ثلاثة أيام من يوم الأحد أى يوم الثلاثاء . فيكون أول المحرم عام ١٣٨٧ هو يوم الثلاثاء . ولتحديد أول رمضان نجد أمامه فى جدول الشهور العربية زيادة قدرها ٤ نضيفها الى الرقم ١٠ الذى للمحرم فيصير ١٤ يوما من يوم الأحد . وبذا يكون أول رمضان هو يوم السبت .

وفيما يلى مقارنة بين الجدول وبين التقويم الرسمى حسب الحسابات الحديثة ، لشهور رجب وشعبان ورمضان .

الشهر العربى	أوله من الجدول	أوله بالحسابات الحديثة
رجب	٥+٥+٢=١٢ أى الخميس	الخميس
شعبان	٥+٥+٣=١٣ أى الجمعة	الجمعة
رمضان	٥+٥+٤=١٤ أى السبت	الأحـد

وبطبيعة الحال ، يختلف الواقع عن كلا الجدول والحسابات الحديثة نظرا لاشتراط ثبوت رؤية الهلال . وتلك مشكلة مزمنة لم يتمكن العلماء حتى الآن من الوصول الى حل لها لتفادى ما تسببه من اختلاف تحديد أيام الأعياد والمواسم بين الدول الاسلامية .

وفى ختام هذه المقالة الثانية من القانون المسعودى المحتوى على احدى عشرة مقالة ، نشير الى أننا لم نسجل منها سوى الجزء اليسير ، اذ هى فى واقع الأمر سجل حافل بالتقاويم والتواريخ والمواسم والأعياد بالاضافة الى عادات بعض الأمم وتقاليدهم .

النبوغ الرياضي

في القانون المسعودي

رغم أن الهدف الأساسي الذي توخاه البيروني في تأليف القانون المسعودي كان علم الفلك والكواكب والنجوم وحركاتها ، ورغم أنه لم يفرد منه سوى مقالة واحدة للرياضة والحسابات والجداول الرياضية التي تدخل في الأعمال الفلكية ، الا أننا نجد هذه المقالة حافلة بالقوانين الهامة والنظريات الجديدة التي ابتكرها البيروني .

تشتمل المقالة الثالثة من القانون المسعودي على عشرة أبواب :ـ

(١) في الباب الأول ذكر البيروني قيم الأوتار الرئيسية في الدائرة ، أو أسماها بأمهات الأوتار . وهي الأوتار التي تقطع من المحيط أقواسا تبلغ أطوالها ـ منسوبة الى طول المحيط ـ الثلث ، والربع ، والخمس ، والسدس ، والثمن والعشر . أي تلك التي تقابل زوايا مركزية قدرها ـ على الترتيب ـ ١٢٠°، ٩٠°، ٧٢°، ٦٠°، ٤٥°، ٣٦° .

ثم أردف تلك القيم الموضوعة على هيئة قوانين ، بذكر البراهين الهندسية التي تؤدي الى استنتاجها ـ ولم يكتف ببرهان واحد للوصول الى نفس القانون كلما وجد الى ذلك سبيلا . فهو مثلا قد أعطى طريقتين لاستنتاج قيمة وتر العشر ، بينما في حالة وتر الخمس أثبت صلته بوتر العشر حتى اذا عرف أحدهما أمكن استنتاج الآخر . وهذه هي العلاقة التي توصل اليها .

مربع وتر الخمس = مربع وتر العشر + مربع نصف القطر.

وأشار البيرونى الى صعوبة وضع وترى السبع والتسع على هيئة قوانين معروفة ، ذاكرا فى هذا الشأن أن وتر السبع (الذى يقابل زاوية مركزية قدرها ٥١ ٣/٧ درجة) يمكن ايجاد طوله باستخدام الآلات الهندسية ، أما وتر التسع (وهو المقابل لزاوية مركزية قدرها ٤٠°) فان شدة الحاجة اليه تستدعى بذل المحاولات لايجاد قيمته ، ولذلك أرجأ البحث فى أمره الى الباب الثالث حيث سلك عدة طرق غير مباشرة فى هذا السبيل .

(٢) فى الباب الثانى تحدث البيرونى عما أسماه بتوابع أمهات الأوتار ، وأعطى قوانين عامة تربط بين ما يلى :

(أ) وترين يقطعان من محيط الدائرة قوسين مجموعهما يبلغ نصف ذلك المحيط .

(ب) وترين يقطعان قوسين ، أحدهما ضعف الآخر .

(جـ) وترين قوس أحدهما نصف الآخر أو ربعه أو ثمنه .. الخ .

(د) ثلاثة أوتار ، قوس احدهما يساوى مجموع قوسى الأخريين أو الفرق بينهما .

ويلى ذلك البراهين الهندسية التى تؤدى الى هذه القوانين ، وهى تشمل طريقتين لايجاد قانون الضعف وأخريين لايجاد قانون النصف .

واختتم البيرونى هذا الباب بتطبيق هذه القوانين على الأوتار الرئيسية المذكورة فى الباب السابق ، وذلك زيادة فى التأكد من صحتها . فمثلا يمكن استنتاج وتر الثلث (١٢٠°) من وتر السدس (٦٠°) وبالعكس ، لأن قيمة الزاوية الأولى ضعف الثانية — وكذلك الحال بين وترى الخمس والعشر (وهما المقابلان لزاويتين قدرهما ٧٢° ، ٣٦°) ووترى الربع والثمن (يقابلان ٩٠° ، ٤٥°

درجة) اذ يمكن استخدام قانون الضعف أو النصف لاستخراج أحدهما اذا عرف الآخر .

وفى نهاية الباب أشار البيرونى الى طريقة حساب قيم الأوتار التى تقابل زوايا صغيرة (وذلك تمهيدا لما سيأتى ذكره عند حساب جداول الجيوب) . ففى هذا الشأن ذكر أن وتر السدس (المقابل لزاوية ٦٠ درجة) يؤدى بنا الى قيمة وتر ١٥ درجة باستعمال قانون التصنيف مرتين ، وكذلك من وتر العشر (٣٦ درجة) يمكننا الحصول على وتر ١٨ . فاذا استعملنا بعد ذلك قانون الفرق ، ينتج قيمة وتر ٣ درجات . . فاذا كررنا التنصيف بعد ذلك حصلنا على قيم أوتار ١/٢ ١ درجة ، ٣/٤ درجة وهكذا .

(٣) يتناول الباب الثالث طرق التحايل لايجاد قيمة وتر التسع وذلك لأهمية الحاجة اليه فى حساب جداول الجيوب . ولما كانت هذه الطرق لا تعطى قوانين محدودة فتكون نتائجها تقريبية ، فان البيرونى يوصى بعدم الاقتصار على طريقة واحدة ، بل يجب اتباع جميع السبل الممكنة وذلك بغية التأكد من النتائج أولا ثم المقارنة بينها واختيار أدقها . ونجده يقول فى هذا الشأن :

« لو أمكن قسمة الزاوية بثلاثة أقسام بالأصول الهندسية ، لتوصل منها الى معرفة وتر ثلث القوس . فكأن وتر التسع يكون حينئذ معلوما ، من أجل ثلث الثلث المعلوم الوتر .

وقد كان من شرطنا الاقتصار فى كل مطلب على طريق واحد مما كان ممهدا على القوانين الهندسية . ولما لم يكن هذ كذلك ، بل كان اقتصاصه بالاحتيال والتمحل ، صار تكثير الطرق فيه مجديا ، على مثال ما نفعل فى الأشياء التى وان اتضحت بالأصول ، فعلى قواعد من الاعتبارات والأرصاد ، ربما لا يتفق للانسان منها ما يتفق لغيره . فاذا أفنيت الطرق لها أمكن التصرف فى جميع أوضاعها » .

ولهـــذا السبب ، ذكر البيرونى ثلاثة طرق لايجاد قيمة وتر التسع ، منها أثنتان تعتمدان على استنباط علاقات رياضية من الأشكال الهندسية ، فأدت الطريقة الأولى الى معادلة من الدرجة الثالثة يمكن وضعها على الصورة :

س٣ ـ ٣ س ـ ١ = صفر .

حيث المجهول هو وتر تسعين . فاذا عرفت قيمة هذا الوتر ، وصلنا الى وتر التسع باستعمال قانون النصف . وفى الطريقـة الثانية وصل البيرونى الى معادلة من الدرجة الثالثة أيضا :

س٣ ـ ٣ س + ١ = صفر .

والمجهول س فى هذه الحالة هو وتر ١/١٨ ، وباستخدام قانون الضعف نحصل على المطلوب .

وقد سلك البيرونى فى حل هاتين المعادلتين ، الطريقة الحديثة المعروفة باسم « المحاولة والخطأ » ، بمعنى أن نفرض عدة قيم لذلك المجهول حتى يمكن حصر قيمته بين كميتين منها ، ثم نتدرج من ذلك الى معرفة القيمة التى تقرب جدا من الحقيقة .. ومن العجب أن قيمة وتر التسع التى توصل اليها البيرونى عن هذا الطريق هى ٠ر٦٨٤٠٤٠٢٧ . فى حين أن القيمة التى نجدها فى الجداول الحديثة هى ٠ر٦٨٤٠٤٠٢٨ !! .

والطريقة الثالثة التى اتبعها البيرونى لايجاد وتر التسع ليست كسابقتيها ، هندسية جبرية ، بل هى حسابية أشبه بما هو معروف حاليا باسم التقريب المتتابع . وفى تلك الطريقة أخذ وترى الخمس والسدس (٧٢ ، ٦٠) واستخرج وتر الفرق بينهما (١٢) ، ومن وتر السدس أيضـــا وصل الى وتر ٣٠ عن طـــريق قانون النصف ـ ثم استخدم قانون المجموع لايجاد وتر ٣٠+١٢ أى وتر ٤٢ درجة وهذا هو ما أسماه بوتر المجموع الأول الذى نلاحـظ

قربه من ٥٤٠ المطلوبة . وكانت الخطوة التالية هى تطبيق قانون النصف مرتين على وتر ٤٢ ، فاستخرج من ذلك وتر ٣٠َ- ٥١٠ ، ومنه وتر المجموع الثانى ٥٣٠+٣٠َ- ٥١٠=٣٠َ- ٥٤٠ ... وذلك أقرب الى ٥٤٠ من المجموع الأول . وباتباع نفس الخطوة السابقة، استخرج وتر المجموع الثالث ثم الرابع وهكذا حتى الحادى عشر ، وهو فى كل مرة يقترب أكثر فأكثر من وتر التسع المطلوب . وقد توقف عند وتر المجموع الحادى عشر الذى خـــرج له مســـاويا ٦٨٤٠٤٠٣٢ر. لأنه طريق طويل شاق احتاج الى ست وستين عملية لاستخراج الجذر التربيعى . وقد سلك البيرونى هذا الطريق لرغبته فى زيادة التأكد من صحة النتائج السابقة ، وكان لدقته وطول باعه الفضل فى وصوله الى نتيجة ترغمنا على تقدير ذلك العالم العربى والفخر به ، خاصة وانه لم يكن فى متناول يديه من الآلات الحاسبة ولا من الجداول الرياضية مثل ما لدينا فى العصر الحديث .

(٤) وكما احتاج وتر التسع الى التحايل لاستخراج قيمته ، فان ايجاد وتر الدرجة الواحدة فى الباب الرابع قد احتـــاج الى سلوك عدة طرق غير مباشرة بدأها البيرونى باثنتى عشرة مقدمة لتثليث الزاوية ، أو هى فى الحقيقة اثنتى عشرة عملية هندسية تربط بين وترين ، زاوية أحدهما ثلاثة أمثال زاوية الآخر .

وكانت هذه أول مرة لبحث هذا الموضوع ، حتى أن العلماء فيما بعد أطلقوا عليها اسم « مسائل البيرونى » .

وقد أشار البيرونى الى امكان الاستعانة بهذه العمليات الخاصة بتثليث الزاويةلايجاد قيمة وتر التسع ، اذ أنهمن وتر السدس (٦٠) ينتج وتر ٣٠ عن طريق التنصيف ثم باستخدام عمليات التثليث ينتج وتر ١٠ وعلى ذلك يصير وتر ٣٠+١٠=٤٠ أى وتر التسع معروفا . فاذا أضفنا هذه الطريقة الى ما ذكرناه فى الباب السابق، أصبحت طرق التحايل لايجاد وتر التسع أربعا .

وانتقل البيرونى بعد ذلك الى بحث الوصول الى وتر الدرجة الواحدة ، فذكر لذلك ثلاث طرق ، تعتمد اثنتان منها على معرفة وتر التسع .

الأولى : من وتر التسع (٤٠) ووتر العشر (٣٦) اذا استخدمنا قانون الفرق نحصل على وتر ٤ ، ثم باستخدام قانون التنصيف مرتين ينتج لنا وتر درجة واحدة .

الثانية : من وتر ألتسع ، اذا استعملنا قانون التنصيف مرتين وصلنا الى وتر ١٠ ، ومن ناحية أخرى اذا استعملنا قانون الفرق بين وترى الخمس (٧٢) والسدس (٦٠) نجد وتر ١٢ . وبذلك يصير وتر الفرق ١٢ — ١٠ = ٢ درجة معروفا . وأخيرا بالتنصيف ينتج وتر الدرجة الواحدة . والنتيجة التى أدت اليهـــا هاتان الطريقتان هى ١٧٤٥٣٠٥ . ر . كقيمة لوتر الدرجة الواحدة وذلك فى مقابل ١٧٤٥٣٠٨ . ر . فى الجداول الحديثة .

أما الطريقة الثالثة لايجاد وتر الدرجة الواحدة ، فهى تعتمد على تثليث الزاوية الذى بدأ به البيرونى هذا الباب . وقد وضعها على هيئـــة عدة معـــادلات وعلاقات بين وتر ٦ وهو معلوم ووتر ١٧٤ (= وتر (١٨٠ — ٦°) ووتر ٢ وهو المطلوب ايجاده :

ص < ١/٢ وتر ٦ ... (١) .

س^{٢} = ص^{٢} + (½ وتر ١٧٤) ٢ ... (٢) .

½ وتر ٦ × س = ص (القطر + س) ... (٣) .

وباستخدام طريق المحاولة والخطأ ، فرض قيمة للمجهول ص على أن تكون أقل من ١/٢ وتر ٦ ، وبتعويض تلك القيمة فى معادلة (٢) ينتج قيمـــة س . فاذا كانت القيمـــة المفروضـــة للمجهول ص صحيحة فان تعويضها هى وقيمة س المترتبة عليها فى معادلة (٣) يجب أن يعطى طرفين متساويين للمعادلة ، والا غيرنا فرضنا

الأصلى لقيمة ص حتى نصل الى المطلوب . والخطوة التالية بعد ذلك هى استعمال المعادلة :

وتر ٢ = ½ وتر ٦ ــ ص .

وهى تعطينا وتر ٢ ومنها ينتج وتر الدرجة الواحدة ، وكانت القيمة التى وجدها البيرونى بهذه الطريقة هى ١٧٤٥٣٠٧. ر .

وسرد البيرونى بعد ذلك طريقة بطلميوس لايجاد قيمة ذلك الوتر عن طريقة العلاقة بينه وبين وترى ١½ ، ٣/٤ المعلومين (الباب الثانى) وانتقد تلك الطريقة مثبتا عدم دقتها . ثم بين أن هذه الطريقة نفسـها تؤدى الى نتائج أفضل اذا استخدمت لايجـاد وتر ½ بدلا من درجة واحدة وذلك عن طريق العلاقة بينه وبين وترى ٣/٤ ، ٣/٨ ، وأن النتائج تزداد دقة اذا استعملنا الطريقة لايجاد وتر ١/٤ من وتر ٣/٨ ، ٣/١٦ .

وانتقد البيرونى كذلك طريقة لأحد علماء عصره تعتمـد على استخدام قانون المجموع لوترى ٣ ، ٣/٤ ومنه يستخرج وتر ٣ ٣/٤ ، ثم باستعمال قانون التنصيف مرتين وجد وتر ١٥/١٦ . ثم استخدم بعد ذلك خطوة تقريبية وهى أنه باعتبار الفرق بين الدرجة الواحدة وبين ١٥/١٦ هو ١/١٥ من الدرجة ، فان الفرق بين وتر الدرجة الواحدة المطلوب وبين وتر ١٥/١٦ المستخرج هو ١/١٥ من وتر ١٥/١٦ . والبيرونى هنا يقارن بين طريقة بطلميوس وبين هـذه الطريقة المنسوبة الى يعقوب السجزى :

« وذلك وتر الجزء الواحد من غير حاجة الى تطويل بطلميوس فيه . وما أحسن تلطف يعقوب لمرامه ، لولا افساده الخاتمة . فان من لا يجيف يعلم ان الأمر بين النفرين سواء لا ينفصلان فيه ، سوى أن بطلميوس فعله عن بصيرة ويعقوب من غير معرفة » .

٥ ــ موضوع الباب الخامس هو ايجاد قيمة النسبة التقريبية ،

أى النسبة بين طول محيط الدائرة ونصف قطرها . فأخذ البيرونى لذلك شكلا منتظما داخل الدائرة ، ذا مائة وثمانين ضلعا ، فيكون كل ضلع منها يمثل فى الدائرة وترا يقابل زاوية مركزية قدرها درجتان ، وعلى ذلك تكون قيمة هذا الضلع معلومة ، وبالتالى يمكن ايجاد مجموع أضلاع الشكل المنتظم . ثم أخذ شكلا منتظما آخر ، مشابها للأول ولكنه مرسوم خارج الدائرة بحيث تمس أضلاعه . واعتبر بعد ذلك أن محيط الدائرة هو وسط بين أضلاع الشكلين المرسومين ، ولما أخذ المتوسط خرجت له النسبة التقريبية ١٤١٧٤٦٦ ر ٣ (القيمة الصحيحة هى ٣ر١٤١٥٩٢٧) . ولو أن البيرونى زاد من عدد أضلاع الشكل المنتظم لاقترب محيطه من محيط الدائرة ، ولازدادت دقة القيمة المستنتجة .

وانتقل البيرونى بعد ذلك الى ذكر الأسباب التى دعت بعض العلماء الى اعتبار طول نصف قطر الدائرة مساويا ستين وحدة . فالمعروف أن المحيط يقابل عند المركز زاوية قدرها ثلثمائة وستين درجة ، وعلى ذلك اعتبروا طول المحيط نفسه ثلثمائة وستين وحدة ، ولما كان :

طول المحيط = نصف القطر × النسبة التقريبية .
فانه طبقا للاعتبار المذكور يكون :

$$\text{نصف القطر} = \frac{٣٦٠}{٣٫١٤١٧٤٦٦}$$

والقيمة الناتجة للقطر مقدرا بهذه الوحدات هى ١١٤ وكسر . وذكر البيرونى أن بطلميوس تردد فى اعتبار قيمة ١١٠ أو ١٢٠ ثم اختار فى النهاية القيمة الأخيرة لأن نصف القطر حينئذ يساوى ستين وحدة ، وذلك موافق للنظام الستينى الذى كان مستخدما فى الحسابات فى تلك الآونة (بدلا من النظام العشرى المستعمل

حاليا) ، مما يجعل أية عملية حسابية تتعلق بالدائرة وأوتارها سهلة غير معقدة .

وهنا نود أن نشير الى قيمة نصف القطر التى اتخذها علماء الهند ، اذ اعتبروها ٢½ من تلك الوحدات ، أما البيرونى نفسه (الباب السادس) فقد اتخذها مساوية للواحد الصحيح .

(٦) طرق البيرونى فى أول الباب السادس موضوع نصف القطر فى الدائرة ، فاختار له أن تكون قيمته مساوية للوحدة . وبذلك أصبح طول الوتر فى الدائرة مساويا ضعف جيب نصف الزاوية المقابلة له ، أى أن نصف ذلك الوتر هو جيب كما هو معروف لنا ، فى حين أن جداول الجيوب الأخرى المستعملة فى ذلك العصر تعطى الجيوب الحديثة مضروبة فى ستين أو فى ٢½ حسب اختيار قيمة نصف القطر . ولندع البيرونى يبين لنا ذلك فى عباراته :

« ان النسبة بين القطر والدور ، وان اتضحت على قدر ما احتملت ، فانا فى أمر الأوتار غير محتاجين اليها ، لأنا انما نحتاج الى النسب التى بين الأوتار ، وهى ثابتة فيها على اختلاف أعداد القطر . ولأنا نريد استعمال أنصاف أوتار أضعاف القسى المسماة جيوبا ، لسهولة الاستعمال ، وخفة الاسم — وهو هندى لأوتار قسيهم — فانا نؤثر فى القطر أن يكون = جزأين ، ليكون نصفه الذى يسمى جيبا أعظم وربما سمى الجيب كله ، واحدا ، لتسقط عن أعمالنا مئونة ذكر الضرب فيه والقسمة عليه » .

وبذلك كان البيرونى هو أول من اختار الوحدة لنصف القطر ، فأصبحت جداوله أول جداول مماثلة لما نستعمله حاليا . أما السبب الذى دعاه الى هذا الاختيار فهو : ان العمليات الحسابية كثيرا ما تتطلب الضرب فى قيمة نصف القطر أو القسمة

عليه . فاختيار الوحدة كان تيسيرا لتلك العمليات واختصارا للوقت ، خاصة اذا تعددت الحسابات وطالت .

وقد وضع البيرونى على أساس ذلك جداول لأنصاف الأوتار التى كانت تسمى جيوبا .. حتى ولو كانت فى حقيقتها مضروبة فى عامل ثابت يمثل قيمة نصف القطر ، ولما كان قد اختار ذلك العامل واحدا فقد جاءت جداول جيوبه مطابقة لجداول الجيوب المألوفة لدينا .

وكانت جداول العلماء قبل ذلك الوقت محسوبة لكل درجة أو نصف درجة فقط ، فزاد البيرونى على ذلك بأن حسبها لكل ربع درجة ، وهو لم يفعل ذلك اعتباطا أو عن غير قصد ، بل أوضح بالبراهين الهندسية أنه اذا زادت الزوايا بفترات متساوية فإن الجيوب الناتجة لا تزداد بانتظام . ولما كان استعمال الجداول بالطريقة المألوفة (طريقة التناسب التى لا تزال تستعمل حتى الآن) لايجاد جيب زاوية غير مرصودة فى الجدول — بل واقعة بين قيمتين مرصودتين — مبنى على فرض انتظام الزيادة فى الجيوب ، فقد وجد البيرونى أنه من الأفضل تقصير الفترات بين الزوايا المرصودة حتى يقل الخطأ الناتج عن طريقة التناسب . وأشار فى هذا الصدد الى أنه لو حسب الجداول لكل دقيقة قوسية بدلا من كل ربع درجة (١٥ دقيقة) لولا طول الحسابات وضخامة حجم الجداول .

« وعلى هذا ، لو لم يتعذر تدقيق العمل لطوله ، لكان تحليل الجيوب الى دقائق أجزاء القسى أصوب ، لينتقل التساهل من أجزاء الأجزاء الى التى لم نستعملها . وكان الأولى بنا أن نفعله ، لأن مدار أمور هذه الصناعة عليها ، ومرجع أعمال الزيجات اليها » .

وفى هذا الموضع ، نود أن نشير الى طريقة العرب فى كتابة تلك الجداول ، ونفسر معنى الرموز الأبجدية فيها وما تعنيه من أرقام وأعداد . فقد كان علماء الفلك والتنجيم يستخدمون

« حساب الجمل » حيث تعبر الحروف الأبجدية عن الأرقام حسب ترتيب أبجد هوز حطى كلمن .. الخ . حيث تقوم الألف مقام الواحد ، والباء مقام الاثنين .. حتى الياء تساوى ١٠ ثم الكاف ٢٠ واللام ٣٠ وهكذا . ويتكون أى عدد من تركيب هذه الحروف الأبجدية مع بعضها على أن يقدم الأكبر على الأصغر ، مثل العدد (مه) وهو ٤٥ لأن الميم تمثل ٤٠ والهاء خمسة .

أما كتابة الكسور فى تلك الجداول ، فلم تكن طبقا للنظام العشرى أو على هيئة كسور اعتيادية ، بل كتبت حسب النظام الستينى الشائع حينذاك . فمثلا العدد (ب يد مه) اذا ترجمنا فيه الحروف الى أرقام أصبح (٢ ، ١٤ ، ٤٥) ومعنى ذلك بالنظام الستينى :

$$٢ + \frac{١٤}{٦٠} + \frac{٤٥}{٦٠ \times ٦٠}$$

وتشمل الجداول ـ الى جانب جيوب الزوايا ـ على ما أسماه البيرونى بالفضول (والفضل هنا هو الزيادة الناتجة فى جيب زاوية ما عند الانتقال الى القيمة التالية لها أى باضافة ربع درجة) . ثم ضرب البيرونى تلك الزيادات أو الفضول فى أربعة ، ووضعها فى عمود التعاديل ليمثل كل منها الزيادة فى الجيب اذا زادت الزاوية درجة بأكملها فى هذا المكان من الجدول ، وذلك بغية تيسير العمليات الحسابية .

ويكفى أن نشير الى أن البيرونى ـ لكى يضع هذه الجداول على الصورة التى أرادها ـ قام بأكثر من ألف عملية حسابية . اما اذا ألقينا نظرة على تلك الجداول بعد ترجمة رموزها ونظامها الستينى الى كسور عشرية ، فانا نرى مدى دقته فى حساباته حتى جاءت تلك القيم صحيحة الى الرقم العشرى الثامن أو السابع . ولنعطى هنا بعض الأمثلة حتى يتبين للقارىء مقدار هذه الدقة بعد مقارنتها بالجداول الحديثة :

الزاوية	الجيب	من الجداول الحديثة
١٥َ ٤°	٠٫٠٧٤١٠٨٤٩	٠٫٠٧٤١٠٨٤٩
٤٥ ١٠	٠٫١٨٦٥٢٤٠٧	٠٫١٨٦٥٢٤٠٤
٣٠ ٣٤	٠٫٥٦٦٤٠٦٢٥	٠٫٥٦٦٤٠٦٢٤
١٥ ٥٧	٠٫٨٤١٠٣٩٠٤	٠٫٨٤١٠٣٩٠١
٤٥ ٨٠	٠٫٩٨٦٩٩٦٣٧	٠٫٩٨٦٩٩٦٣٧

٧ – فى الباب السابع شرح البيرونى طريقة استخدام جداول الجيوب ، سواء لايجاد زاوية واقعة بين قيمتين مدرجتين فى الجدول ، أو لايجاد الزاوية نفسها اذا كان جيبها معلوما – وقد ذكر فى هذا الشأن طريقتين ، احداهما هى الطريقة المألوفة التى كان يتبعها العلماء حينذاك فى جميع الجداول ، والتى لا زلنا نستعملها حتى اليوم فى ايجاد قيم تقريبية للمطلوب . وهذه الطريقة تعتمد على التناسب ، بفرض انتظام الزيادة فى الجيوب عند ازدياد الزوايا بفترات متساوية .

أما الطريقة الثانية ، والتى كانت من ابتكار البيرونى نفسه ، فهى تكملة للدقة التى دعته الى تقصير فترات الجدول الى ربع درجة بدلا من نصف درجة نتيجة لعدم انتظام الزيادة فى الجيوب ، فقد وجد أن تصغير الفترات ما زال غير كاف للوصول الى أكبر درجة من الدقة . ولذلك استنبط ما يمكن أن نطلق عليه اسم قانون البيرونى لحساب الاستكمال ، وهو صورة مبسطة لقانون جريجورى – نيوتن الذى أعلن بعد وفاة البيرونى بحوالى ستمائة عام .. وقد شرح البيرونى كيفية وصوله الى ذلك القانون مستخدما فى ذلك طريقة هندسية بسيطة لا تعقيد فيها .

ولم يقتصر استعماله لهذا القانون على جداول الجيوب ، بل استخدمه فى الباب التالى فى جداول الظلال . ثم أشار فى نهاية ذلك الباب الى ضرورة التوسع فى تطبيقه حتى يشمل الجداول بصفة عامة ، وذلك اذا أردنا أن نتوخى الدقة الكافية — وفى الحق ، لم يقف عند حد الاشارة — بل ذكر كيفية ذلك ، وأعطى قانونا عاما للاستعمال . وفى هذا الصدد يقول :

« ولأن الأظلال تابعة للجيوب ، فى افتقار الصناعة اليها ، فانا سلكنا فى استعمالها المسلك المتقدم فى تدقيق الجيوب ، وان كان مثله فى جميع الجداول واجبا . ولكنه فوضناه الى العامل ، العالم بأن الفضول هى فضل ما بين كل موضوعين بحيال قوسين فى سطر العدد من المطلوبات ، وأن التعديل هو فضل ما بين الفضل المحاذى وبين الفضل السابق .

فاذا استعمله فى جميع الجداول ، وخاصة فيما عظم التفاوت بين فضولها ، جرى على ما قدمناه اذا تولاه » .

٨ — يشتمل الباب الثامن على جداول للظلال محسوبة لكل درجة وهى — كجداول الجيوب — صحيحة الى الرقم العشرى الثامن أو السابع فى نصفها الأول فقط . أما النصف الأخير من هذه الجداول فليس فى مثل تلك الدقة ، والسبب فى ذلك واضح — وقد أشار اليه البيرونى — وهو أن الظلال فى هذا الجزء من الجدول تزداد قيمتها بسرعة فائقة عند الانتقال من زاوية الى أخرى تالية لها ، ونصح بعدم استخدام الظلال الا للزوايا الواقعة فى النصف الأول فقط .

يبدأ هذا الباب الثامن باستنباط قانون هام من القوانين المعروفة لنا ، وهو أن طول جزء صغير جدا من محيط الدائرة لا يختلف كثيرا عن طول وتره .. وقد استخدم هذه النتيجة فى اعتبار ظل عمود أو عصا رأسية ، مستقيما لا يتبع انحناء سطح الأرض ، وذلك لأن طول هذا الظل صغير جدا اذا قورن بطول محيط الأرض .

« قد تقرر فى المبادىء ، أنه ليس لنصف الأرض عند فلك الشمس ، بحسب ما يدرك من النهار والليل فى مداراتها ، قدر محسوس . فكذلك ليس لسطح الأرض فى القدر الذى تقاس فيه أظلال الأشخاص الناتئة منه ، خلاف محسـوس به ، فيما بين الانحداب والاستقامة ، لنزارة ذلك القدر عند وجه الأرض كله .

وهكذا تكون أقسام الدوائر اذا دقت ، لا تخالف أوتارها الا فيما صغر جدا من أجزاء الأجزاء » .

وبعد ذلك أشار الى الفرق بين ظل عصا رأسية مغروسة فى الأرض ، وبين ظل عصا أفقية مثبتة فى حائط رأسى . فالأول يسمى الظل المستوى وهو ما يقابل ظل التمام المعروف ، والثانى يسمى الظل المعكوس وهو ما يقابل الظل .

وتحدث البيرونى عن قاعدة هامة فى علم الفلك ، وهى التفرقة بين الأرصاد لتعيين مواقع الأجرام السماوية كما يراها شخص على سطح الأرض ، وبين تلك المواقع منسوبة الى مركزها (وهذه الأخيرة هى التى تكتب عادة فى الجداول الفلكية) . وان كان قد أبرز أهمية ذلك فى حالة القمر لقربه من الأرض ، وأشار الى امكان اهماله فى حالة الشمس .

ولم يترك البيرونى طرق استخدام جـداول الظـلال دون براهين ، سواء فى ذلك الطرق العادية أو الطرق الدقيقة التى كان هو مؤسسها . وقد استهل هذه البراهين باثبات قانون جيوب زوايا المثلث المستوى مع الأضلاع المقابلة لها .. وكان هو أول من أثبت ذلك .

٩ ــ فى البابين التاسع والعاشر تناول البيرونى قوانين حساب المثلثات الكروية (المرسومة على سطح كرة) ، والقوانين المستنتجة فى هذا المجال هى المألوفة لدينا فى حالة المثلث الكروى القائم

الزاوية .. وذلك بالاضافة الى قانون الجيوب فى المثلث الكروى العام .

وفى المقالة الرابعة التى تحتوى على ٢٦ بابا ناقش البيرونى عدة مسائل ، من بينها ايجاد الزاوية بين مسار الأرض حول الشمس وبين مستوى خط الاستواء أو بمعنى آخر ميل محور الأرض على مسارها حول الشمس ، وتحويل الاحداثيات السماوية بعضها الى بعض ، وتعيين الوقت ، وتعيين خطوط الطول والعرض للبلدان . وهو فى مناقشاته ذكر كل الطرق المختلفة التى عولجت بها المواضيع بالاضافة الى طرقه الخاصة وتحسين السابقة كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

فعندما تناول موضوع ميل محور الأرض ، بدأه بذكر العلاقة بينه وبين ارتفاعات الشمس عند المنقلبين الصيفى والشتوى . ثم أردف ذلك بوصف للجهاز المستخدم فى هذه الأرصاد مقارنا فى ذلك بين آلة بطليموس والآلة التى استعملها العرب ومشيرا الى الحاجة الى تكبير حجم الحلقة الدائرية المدرجة حتى يمكن تقسيمها الى أكبر عدد من الأقسام ، فيكون قياس ارتفاع الشمس بها أقرب الى الدقة مما لو كانت صغيرة الحجم . ومن ناحية أخرى ، أوضح أن تكبير حجمها يؤدى الى زيادة ضغط أجزائها بعضها على البعض مما ينتج عنه تغير شكلها وانحرافه عن دائرة ، وكيف تغلب القدماء على تلك الصعوبات ببنـــاء حائط رأسى واستعاضتهم عن الحلقة برسم دائرة على ذلك الحائط .

وكعادة البيرونى فى الاشارة الى أعمال الآخرين ، جمع النتائج التى توصل اليها علماء الفلك فى الهند واليونان والمعاصرون له من العرب ، وبين كيف اختلفت هذه النتائج فيما بينهم . وهو فى تسجيله لهذه النتائج أعطى كل ذى حق حقه ، حتى ولو كان عن طريق السماع .

« فأما مقدار هذا الميل الذى بقدر الزاوية الحادثة من تقاطع معدل النهار ومنطقة البروج ، فاتفاق فرق الهند فيه على أنه أربع وعشرين جزءا .. ثم هـو عنـد بطليموس أنقص من ذلك بثمان دقائق وثلثى دقيقة .

وأما المحدثون من لدن زمن المأمون بن الرشيد ، فان أرصادهم تضافرت فيه على ثلاثة وعشرين جزءا وأزيد من نصف جزء ، ثم اختلفوا فى مقدار تلك الزيادة بسبب الوجود فى الآلة . فرصد يحيى بن أبى منصور بالشماسية أوجبها ثلاث دقائق ، ووافقها رصد حكته المراوزة ممكن أن يكون يحيى تولاه ، اذ كان من هناك.

وأما من وجدها أربع دقائق فان سند بن على حكى عن خالد المروزى وقد تولى الاشراف عليه بدمشق أنه وجدها ثلاث دقائق واثنتين وخمسين ثانية ..

فأما من وجدها خمس دقائق فانها فى جـدول الارتفاعات الدمشقية أربع دقائق واحدى وخمسون ثانية ...

ووقع فيما بينها أرصاد مخالفة لذلك ، كعمل أبى الفضل ابن العميد بالرى فانه أوجبها عشر دقائق ، وذلك ظاهر أن الخلل كان من الآلة ، وكعمل أبى محمود الخجندى بالرى فانه أوجبها دقيقتين واحدى وعشرين ثانية ، وقد اعترف لى صاحبه شفاها بفساد الآلة فى أحد المنقلبين » .

ولم يطمئن البيرونى لهذا الاختلاف فقرر أن يقوم بأرصاده الخاصة ، وكرر ذلك أربع مرات أولها قبل عام ٣٨٧ هـ أى قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ثم اضطر الى الهجرة بعيدا عن بلاده . ولما عاد اليها بعد حوالى خمسة عشر عاما أعاد تلك الأرصاد عام ٤٠٧ هـ ولم يلبث أن انتقل الى غزنة مع السلطان محمود بن مسعود حيث أعاد الرصد للمرتين الثالثة والرابعة عامى ٤١٠ ، ٤١١ هـ .

« فاذا كان الحال على هذا ، وليس فيه غير التقليد بعد حصول الهداية للمقصود ، والتهدى لمأخذه ، مع الحرص على الحق والثبوت على الأمانة والصدق ، لم تسكن نفسى الى غير المشاهدة ، فاعتبرته فى حداثتى بظل المنقلب الصيفى ... وعدت الى مثله بعد نيف وعشرين سنة وقست ارتفاع المنقلب الصيفى مع ارتفاعات الأيام التى حوله ، وذلك بجرجانية خوارزم فى سنة سبع وأربعمائة للهجرة ، فوجدته أحدا وسبعين جزءا وثمان عشرة دقيقة . ولما لم أثق بالتمكن من رصد ارتفاع المنقلب الآخر ، لما كان يتوقع من الأحوال ، ولما فى طبيعة البقعة من دوام الاغامة فى ذلك الوقت ، رصدت فى ذلك اليوم أيضا الارتفاع الذى لا سمت له .... ثم تم الأمر فيه بغزنة دار مملكة المشرق ، ورصدت بها أعظم الارتفاعات ، فكان فى يوم الاثنين الثامن من صفر سنة عشر وأربعمائة ... وفى السنة التى تتلوها ... » .

شاب لم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، أقلق باله تضارب النتائج الفلكية لصفوة العلماء ، فقرر أن يصنع آلته الخاصة ويقوم بأرصاد تقضى على حيرته فى اختيار القيمة الحقيقية التى يبنى الاعتماد عليها فى أعماله الفلكية . ثم نجده لا يكتفى بالرصد مرة واحدة ، بل يكرره مثنى وثلاث ورباع دون أن تصرفه الحوادث والحروب عن عزمه ولو بعد عشرات السنين .

ثم أشار الى طريقة أخرى لمعرفة زاوية ميل المحور بغير رصد ارتفاعى المنقلبين . وذكر فى هذا الصدد طريقة أعجبته لمحمد بن صباح ، وان كان قد انتقدها بسبب اعتمادها على انتظام حركة الأرض فى مسارها حول الشمس :

« ولمحمد بن صباح رسالة فى معرفة سعة مشرق المنقلب ، أورد طريق الحساب فيها دون البرهان ، لأن أساس عمله ممهد للتساهل ، مبنى على غير التحقيق ، فانه أخذ فيه مسير الشمس فى الأزمان المتساوية مستويا وليس كذلك » .

ولما كانت الأرصاد الفلكية على اختلاف أنواعها ، وما يتصل بها من تحديد الأوقات وتعيين اتجاهات أماكن العبادة ، تعتمد على معرفة الجهات الأصلية ، فقد أفرد البيرونى الباب الخامس عشر من هذه المقالة لتعيين خط نصف النهار (اتجاه الشمال والجنوب) . وذكر سبع طرق مختلفة للوصول الى ذلك ، مشيرا الى مزايا ومساوىء كل منها . واحدى هذه الطرق من أصل هندى ، ناقشها ثم أضاف اليها بعض التحسينات ، وأخيرا شرح مع البرهان طريقا هندسيا له ، يوفر الوقت الذى يقضيه الفلكى فى انتظار اللحظات الحاسمة للأرصاد .

الطريقة الأولى :

مراقبة ظل عصا رأسية حتى يكون أقصر ما يمكن وحينئذ تكون الشمس فى نصف النهار ويكون اتجاه الظل هو اتجاه الشمال والجنوب . واعتراض البيرونى على ذلك مبنى على أن ارتفاع الشمس قبيل نصف النهار وبعده بقليل لا يتغير تغيرا محسوسا ، ومعنى ذلك أن اتجاه الظل يتغير خلال زاوية كبيرة بينما لا يحدث تغير يذكر فى طول الظل .

الطريقة الثانية :

تعتمد على الحسابات لمعرفة طول الظل عند الظهر تماما ، ثم نرسم دائرة حول العصا نصف قطرها مساو لهذا الطول ، ثم نرقب الظل الى اللحظة التى يمس فيها طرفه محيط الدائرة فتكون هى لحظة الظهر ويكون اتجاه الظل هو الاتجاه المطلوب . وللبيرونى اعتراضان على ذلك ، أولهما نفس الاعتراض على الطريقة الأولى وهو التغير البطىء فى طول الظل حوالى الظهر ، والثانى صعوبة تحديد التماس بين طرف الظل وبين الدائرة وكلاهما ذو سمك يجعل التماس منطقة لها مساحة وليست نقطة محددة .

الطريقة الثالثة :

نفس الطريقة السابقة ، الا أننا نحسب طول الظل حين تكون الشمس على خط الشرق والغرب بدلا من الشمال والجنوب . ومزايا هذه الطريقة سرعة تغير طول الظل فى ذلك الوضع ، ولكن الصعوبة فى أن الشمس لا تكون فى هذا الاتجاه سوى فترة معينة خلال العام .

الطريقة الرابعة :

يرسم اتجاه الظل فى يوم معين وقت الشروق أو الغروب ، وبحساب الزاوية بينه وبين خط الشرق والغرب يمكن تعيين هذا الأخير . وهذه الطريقة تحتاج الى خلاء منبسط لا عوائق فيه تمنع رؤية الشمس وهى على الأفق .

الطريقة الخامسة :

تعتمد على اختيار ارتفاع معين للشمس ، ثم نقوم بحساب طول الظل واتجاهه عندما تبلغ الشمس ذلك الارتفاع . ثم نرصد الشمس بصفة مستمرة حتى تبلغ ذلك الارتفاع وحينئذ نرسم اتجاه الظل ومنه نعرف خط الشمال والجنوب . وهذه الطريقة . فضلا عن حاجتها الى عدد من العمليات الحسابية ثم الترقب والانتظار حتى لحظة معينة ، فانها قد تفشل نتيجة لعوائق جوية كالسحب وغيرها .

الطريقة السادسة :

هذه تعرف باسم طريقة الدائرة الهندية ، وهى أن تخط دائرة حول العصا نصف قطرها مساو لضعف طول العصا . والحكمة فى اختيار هذا الطول هو أن طرف الظل يدخل ويخرج من الدائرة كل يوم على مدار السنة . ثم نحدد على محيط الدائرة

نقطة دخول طرف الظل فى الصباح وخروجه بعد الظهر ، فيكون قطر الدائرة المتوسط بينهما هو اتجـــاه الشمال والجنوب . والسبب فى ذلك أن طولى الظل فى الصباح وبعـد الظهر يكونان متساويين اذا تساوى ارتفاعا الشمس فى هاتين اللحظتين ، وذلك يحدث قبل الظهر وبعده بفترتين متساويتين ، فيكون الاتجـــاه المطلوب اذن وسط بينهما .

وقد أثبت البيرونى أولا أن نصف قطر الدائرة المرســومة لا يلزم أن يكون ضعف طول العصا ، بل يمكن تغييره بحيث لا يقل عن طول العصا مضروبا فى ظا (ع + م) حيث (ع) عرض المكان ، (م) الزاوية بين مسار الأرض حول الشمس وبين مستوى خط الاستواء . ثم أشار الى عدم دقة الدائرة الهندية التى تتجاهل تغير موضع الأرض فى مسارها حول الشمس بين الرصدتين ، مما ينتج عنه عدم توسط خط الشمال والجنوب لنقطتى دخول الظل وخروجه . ثم اقترح ــ تحسينا للنتائج ــ حساب بعد الشمس الحقيقى عن خط الشــمال والجنوب فى اللحظتين ومنهما يمكن معرفة المطلوب بدقة أكثر مما سبق .

الطريقة السابعة :

هذه الطريقة للبيرونى نفسه ، وهى لا تحتاج سوى رصدة واحدة فى أى وقت شئنا ، ومنها ينتج الاتجاه المطلوب بعد سلسلة من الرسومات الهندسية . واذا كانت هـــذه هى ميزة طريقة البيرونى ، الا أنه تجاهل فيها تغير موقع الأرض كما فعل علمـــاء الهند .

وتعيين الوقت أمر من الأمور الفلكية الهامة الجديرة بالاشارة اليها ، وقد تناولها البيرونى بالمناقشة فى ثلاثة أبواب من هـــذه المقالة حيث بين فى أحدها كيفية حساب ما مضى من النهـار منذ شروق الشمس عن طريق رصد ارتفاعها ، وفى الثانى عن طريق

رصد اتجاهها بالنسبة لخط الشمال والجنوب ، بينما خصص الثالثة للأرصاد الليلية على النجوم .

واختتم البيرونى هذه المقالة بتحويل المعلومات الفلكية من بلد الى آخر ، ثم من أى مكان على سطح الأرض الى قبة الأرض . وهذه القبة هى منتصف العمران طبقا لمعلومات الأقدمين . فهم كانوا يعتقدون أن نصف النصف الشمالى فقط من الأرض هو الآهل بالعمران فيما بين شواطىء بلاد المغرب الى شواطىء الصين . وفى وسط تلك المنطقة على خط الاستواء جزيرة بالهند ، وتذكر الأساطير الهندية أن بهذه الجزيرة قلعة (لنك) وهى مستقر للشياطين ، ووصفوا من ارتفاعها فى الجو ما يمكن أن يشبه بالقبة فأطلق عليها اسم قبة الأرض .

والمقالة الخامسة من القانون المسعودى تبحث فى المسائل الأرضية المتصلة بالظواهر الفلكية ، كتعيين خطوط الطول والعرض للبلدان ، واتجاه مكان بالنسبة لمكان آخر ، وقياس حجم الأرض أو محيطها ، وخصائص الكرة السماوية فى خطوط العرض المختلفة ، ووصف موجز لجغرافية الأرض مع جدول لخطوط الطول والعرض جمع فيه ما يزيد على ستمائة بلد ومكان .

بدأ هذه المقالة بذكر الطرق المختلفة لتحديد خط طول مكان ما . وأولى هذه الطرق تعتمد على رصد وقت حدوث خسوف للقمر من المكان المجهول وآخر معلوم الطول ، وهى طريقة تحتاج الى تعاون بين علماء البلدين . وهنا سجل البيرونى بالتفصيل مراحل الخسوف المحددة والتى يمكن الاعتماد على رصدها . ثم بين السبب فى اختيار خسوف القمر دون سواه من الظواهر الأخرى مثل العلامات الأرضية التى لا يمكن رؤيتها من مكانين متباعدين ، والظواهر الجوية التى لا تسير على نظام محدد يمكن التنبؤ به قبل حدوثه ، واقترانات الكواكب التى يصعب

تمييزها عند بدايتها ، وكسوف الشمس الذى لا تظهر احدى مراحله فى المكانين فى آن واحد :

« ويحتاج فى هذا القصد الى معرفة وقت وآن واحد فى بلدين متباعدين بحيث يختلف فيهما الوقت ، ومتى تباعدا أسقط الاستدلال فيهما عليه بالعلامات الأرضية الطبيعية والصناعية . وامتنع فى حوادث الجو لزوالها عن النظام ، وغروب المعرفة المتقدمة بها وبكونها ، حتى يحصل عليها المواطأة . وما بقى من القسمة غير الأحداث السماوية ، والاقترانات الكسوفية فيها صالحة . لكن ما للكوكب منها غير مؤثر فى حس البصر الا فى مدة مديدة ، لا يمكن فيها تمييز وقت البدو وغيره ، فبقيت الكسوفات التى للنيرين . والشمسية منها عارضة للأعين دون ذوات الشمس على مثال سنة القمر للكواكب ، ولذلك تختلف مقاديرها ، ولا تكون أوقاتها فى المواضع المختلفة فى آن واحد . والقمرية منها بخلاف ذلك ، لأن الكسف واقع فيها على نفس الجرم ، فحيثما أبصر أدرك بحاله وفى وقته ، فلهذا السبب حصل الاعتماد عليها دون غيرها » .

وثمة طريقة أخرى لا تعتمد على الخسوف ولكنها تحتاج الى معرفة عرضى المكانين حيث يرصد فيها وقت عبور القمر لخط الشمال والجنوب فى ليلة معينة ، وبعد بعض التصحيحات ينتج فرق الطول بين البلدين . أما اذا عرفنا المسافة بين بلدين وعرضيهما فان فرق الطول يمكن حسابه . ولما كان المجال غير متسع أمام البيرونى فى هذا الكتاب كى يتناول الموضوع بالتفصيل ، فقد أفرد له كتابا كاملا هو « تحديد نهايات الأماكن » الذى أشرنا اليه ، حيث شرح جميع الطرق الحسابية والرصدية وضرب الأمثلة المختلفة لأن « الأمثلة تكون مرشدة للحاسب ومعينة على الامتحان والتعبير » ، كما سجل النتائج التى أدت اليها أرصاده وأرصاد غيره .

وقد اهتم البيرونى بموضوع تعيين اتجاه بلد بالنسبة لبلد آخر ، وذلك لأهميته فى تحديد اتجاه المصلين نحو الأماكن المقدسة . وذكر فى ذلك طريقين ، يعتمد أحدهما على الحسابات المثلثية باستخدام قوانين الرياضة المعروفة ، بينما الطريق الثانى هندسى بحت أطلق عليه البيرونى اسم « الطريق الصناعى لمعرفة سمت القبلة وغيرها » . وهو لا يحتاج الى الحسابات المعقدة تسهيلا للناس فى مختلف البلدان فى معرفة الاتجاه الصحيح .

وكان قياس محيط الأرض موضع اهتمام العلماء على مر العصور ، حتى فى عصرنا الحالى . وعندما ترجم العرب علوم الهند واليونان ، وجدوا تضاربا فى نتائج تلك القياسات . وانتابت الحيرة علماء المأمون ، فلم يعرفوا هل يرجع ذلك الاختلاف الى عدم دقة القياسات أو الى جهلهم بالأطوال المستخدمة عند تلك الشعوب أو الى كلاهما . فقد استعمل علماء الهند وحدة تقرب من ثمانية أميال عربية ، بينما استخدم علماء اليونان وحدة الاسطاذيا التى اختلف العلماء فى تقدير طولها . وأشار البيرونى الى أنه حتى بين علماء الهند نجد اختلافا كبيرا كما تبين من أهم مراجعهم الفلكية الخمسة الكبرى المسماة بالسدهانتا أو السندهند كما أسماها العرب .

« ويختلف ذكر الأمم لمقادير القسى الأرضية بما اصطلحوا عليه فى تقرير المسافات ، فما من بقعة الا ولأهلها فى الذراع الذى يحملونها معهم — فضلا عما بعدها — أقاويل يعسر هاهنا حصرها ، بل يتعذر على جامعها تحصيلها ، ثم لا يثبت ذلك فيهم على الأحقاب والقرون وانما يتغير فى قليل من الزمان . ولم يتصل بنا فى هذا الباب كلام مسند الى ذوى التحصيل غير ما ورد من جهة الروم والهند ، وكل واحد منهما يخالف الآخر بمقدار لا يكاد يتجه له وجه . وقد قدر الهند دور الأرض بمسافة تشتمل على

ثمانية أميال من أميالنا ، واختلف رأيهم فى كل الدور ، فذكر فى كل واحد من سدهانداتهم الخمسة بخلاف ما فى الآخر . وقدروه الروم بمقدار سموه اسطاذيا ..» .

ولهذه الأسباب أمر المأمون جماعة من العلماء بقياس محيط الأرض (أو بقياس مســـافة تقابل درجة واحدة عند مركز الأرض) ، فاختاروا لذلك صحراء سنجار فى العراق حيث انقسموا الى فرقتين ، قامت احداهما بالقياسات فى اتجاه الشمال والأخرى فى اتجاه الجنوب . وكما ذكرنا فى الحديث عن « تحديد نهايات الأماكن » اختلفت الآراء والحكايات بعد ذلك فى مقدار تلك المسافة . وعلى ذلك ، اختار البيرونى قاعا صفصفا فى شمال دهستان بأرض جرجان ، ولكنه عجز عن اجتيازه . فلما كان فى الهند ، وجد جبلا يطل على صحراء مســـتوية الوجه ، فاستخدم طريقة جديدة فى قياس محيط الأرض ، اذ صعد الى قمة الجبل وقاس زاوية انخفاض دائرة الأفق . ومن أسفل الجبل ، استطاع قياس ارتفاعه من رصد ارتفاع قمته ، وبذلك أمكنه حساب قيمة نصف قطر الأرض :

« وعلى شدة حرصى أن أتولى الاعتبار ، واختيارى له قاعا صفصفا فى شمال دهستان التى بأرض جرجان ، ثم عجزى عن المفاوز المتعبة والمعين الصادق عليه ، عدلت فيه الى طريق آخر لما وجدت بأرض الهند جبلا مشرفا على صحراء مستوية الوجه ، ناب استواؤها عن ملامسة سطح البحر . فقست على ذروته ملتقى السماء والأرض ـ أعنى دائرة الأفق ـ فوجدته منحطا فى الآلة عن خط المشرق والمغرب بأنقص قليلا من ثلث وربع جزء ، فأخذته أربعا وثلاثين دقيقة . واستخرجت عمود الجبل بأخذ ارتفاع ذروته فى موضعين ، هما مع أصل العمـــود على خط مستقيم .. ».

وكانت النتيجة التى وصل اليها ، قريبة مما ذكرت غالبية

المؤرخين عن عمل علماء المأمون ، فلم يركب البيرونى مركب الغرور ، بل اعترف بالفضل لهؤلاء العلماء ، واستعمل نتائجهم فى حساباته :

« فقد قارب ذلك وجود القوم ، بل لاصقه . وسكن القلب الى ما ذكروه فاستعملناه ، اذ كانت آلاتهم أدق ، وتعبهم فى تحصيله أشد وأشق » .

فاذا انتقلنا الى الجانب الجغرافى ، وجدنا البيرونى وقد سجل مواقع ما يزيد على ستمائة بلد ومكان ، لم ينقلها كما وجدها فى كتب الآخرين ، اذ لاحظ اختلافا فى اختيار مبدأ قياس خطوط الطول . فان أهل الصين والهند وفارس بدءوا من جهة المشرق ، أما المصريون والروم والاغريق فقد بدءوا من جهة المغرب ، ثم اختلفوا فيما بينهم فأخذ بعضهم البداية من ساحل المحيط الأطلنطى وبعضهم من جزائر السعادة (كناريس) على بعد عشر درجات من الشاطىء ونتج عن ذلك خلط فى كثير من الكتب ، حاول البيرونى أن يتحاشاه فى جداوله بمقارنة المسافات وفروق الأطوال الناتجة بالطرق الفلكية :

« قد اثبت فى هذا الباب جداول تضمنت أطوال البلدان وعروضها ، بعد الاجتهاد فى تصحيحها بموجب أوضاع بعضها من بعض ، وما بينها من المسافات ، لا بالنقل الساذج من الكتب . فانها فيه مختلطة فاسدة ، يأخذ بعض أطوال فيها من جزائر السعادة ، وبعضها من ساحل البحر المحيط ، وبينهما عشرة أزمان ، ثم أخذ بعضها من المشرق تتمة المأخوذ من المغرب . وجعلت نظامها بتزايد الطول دون العرض ، مبتدئا فيه من الساحل . وبذلك طول بغداد سبعون زمانا ، ذكرتها لئلا يخلط احد الرأيين بالآخر مقلدا عازب المعرفة بالحقيقة ، غير مبال بافساد المصلح منها ، والله تعالى معين من استعان به فى تحصيلها » .

وخصص البيرونى بابا من المقالة السادسة لمعرفة أوقات الاعتدالين الربيعى والخريفى ، والمنقلبين الصيفى والشتوى عن طريق الأرصاد . وبدأ بوصف للآلة التى استخدمها بطلميوس وهى عبارة عن حلقة تنصب مائلة بزاوية معينة . وهى وان كانت سهلة الصنع والاستعمال ، الا أنها تتعرض للاستطالة اذا علقت ، وللفرطحة اذا ارتكزت على الأرض. ولذلك ، ابتكر البيرونى آلة خاصة قام بصنعها على هيئة نصف كرة يرتكز مقطعها على أرض ملساء ، وشرح طريقة استعمالها والحسابات التى منها ينتج المطلوب وضرب لذلك أمثلة بأرصاده التى قام بها . ثم جمع أرصاد وقت الاعتدال الخريفى فى جدول من أيام هيبارخوس فى القرن الثانى قبل الميلاد حتى أيامه فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ولما كانت هذه الأرصاد قد تمت فى بلدان مختلفة فقد حول أوقاتها الى توقيت غزنة حتى تسهل المقارنة بينها .

ومن أهم الأبحاث الفلكية للبيرونى ما كتبه عن حركة أوج الشمس ، وهو أبعد المواقع السنوية بين الشمس والأرض . فقد كان المعتقد أن هذا الموقع ثابت فى الفضاء اقتناعا برأى بطلميوس فى القرن الثانى الميلادى فى عدم وجود أى اختلاف بين الموقع فى أيامه وبينه فى أيام هيبارخوس :

« وأما حركة الأوج التى لم يرها بطلميوس فتكون بحركة للممثل على نفسه ومركزه نحو المشرق ... » .

« أقول فى ذلك أن بطلميوس استخرج موضع الأوج الذى هو موضع بعد الشمس الأبعد من الأرض ، وبنى عمله على أساس موضوعاته من مدد قطع الشمس أرباع فلك البروج . ثم ذكر أن بوجوده اياها وموضع الأوج موافقا لوجود ابرخس ، أوجب عنده اختصاص أوج الشمس بعدم الحركة » .

أما من رصد الأوج بعد بطلميوس ووجده مختلفا ، فقد أرجع

ذلك الى الأرصاد نفسها اذ أن أى خطأ طفيف فيها ينتج عنه تغير كبير فى موقع الأوج المحسوب . وقد حلل البيرونى جميع هذه الأرصاد المختلفة ، ومنها حسب موقع الأوج ، ثم قام بأرصاده الخاصة وأثبت قطعا أن الأوج متحرك :

« وقد اتضح من جميع ما تقدم ، أن أوج الشمس متحرك ، وأن الأمر فيه بخلاف ما ظهر لبطلميوس » .

والمؤرخون ينسبون اثبات حركة الأوج للعالم العربى الأندلسى أبى اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش الشهير بالزرقلى ، ولكن هذا العالم ولد عام ١٠٢٩ م أى عندما قارب البيرونى على الانتهاء من كتابة القانون المسعودى ، وان كان للزرقلى شرف الوصول الى أدق نتيجة عرفت حتى ذلك العهد عن مقدار هذه الحركة . ومن المعروف أن دقة النتيجة تعتمد على مقارنة رصدتين بينهما أطول مدة ممكنة ، فاذا صغرت المدة أو كانت احدى الرصدتين غير موثوق بها أدى ذلك الى خطأ كبير نظرا للبطء الشديد فى حركة الأوج (درجة واحدة كل ثلثمائة عام تقريبا) .

وتحتوى هذه المقالة أيضا على كثير من المواضيع الفلكية الأخرى والجداول الهامة التى يحتاج اليها علماء الفلك فى حساباتهم . فمن المسائل الخاصة بالشمس ، حركتها السنوية الظاهرية حول الأرض (كان الاعتقاد سائدا بأنها حركة حقيقية وليست ظاهرية) . فقد اتضح من الدراسات أن سرعة الشمس فى هذا المسار غير ثابتة ، بل تسرع أحيانا وتبطىء أحيانا ، كما أن الحجم الظاهرى لقرص الشمس يتغير من وقت لآخر . وقد فسر القدماء ذلك بفرض المسار دائرة لا تقع الأرض فى مركزها ، فاذا كانت الحركة منتظمة بالنسبة للمركز فانها لا تكون كذلك بالنسبة للأرض . أما السرعة المتوسطة للشمس فتنتج من قياس طول السنة الذى هو الفترة بين حلول الشمس فى نقطة من المسار وبين

عودتها الى نفس النقطة . وفى حديثه عن ذلك ، انتقل البيرونى الى علم الطبيعة وتمدد المعـــادن بالحرارة وانكماشها بالبرودة فيقول :

« وعلى هذا عملوا كما عملنا نحن ، وان كان عملنا للتوطيد . ولابد من وقوع التساهل فى أمثال هذا الرصد بسبب صغر الآلات اذا قيست الى عظم ما يقاس بها ، وبسبب التغاير التى وقوعها ضرورى فى الأشياء الطبيعية ، لازم اياها لا يفارقها ، كالامتـــداد العارض فى الحلقات من ثقلها اذا أفرط فى تعظيمها حتى يستطيل له ويعرض . أما الاستطالة ففى السمك اذا علقت ، وأما الانبطاح ففى العرض اذا نصبت ، وبسبب ما يلحقها من أمثال ذلك عند تغير الكيفيات فى المواد .

وقد كان المأمون تولى نصب عمود من حديد أدى أذرعه على عشر ، بدير مران من دمشق ، وسواه فى صدر النهار ثم قاســه بالمساء فوجـده متغيرا عن نصبته قدر طول شعيرة بتأثير برودة الليل فيه . وآيسه ذلك عن ادراك مقدار السنة بالحقيقة » .

وذكر البيرونى أنه لتفادى الأخطــاء فى قياس طول السنة ، يرصد وقت حلول الشمس هذه النقطة المعينة مرتين بينهما عدد كبير من السنين . وذلك يحتاج الى اعتماد العلماء على أرصـــاد السابقين لمقارنتها بأرصادهم :

« فان الزمان فيما بين الرصدين مهما طال وامتـد ، توزع الخلل الواقع فى العمل عليه ، وصغر قدره فى أجزائه حتى يجاوز ما يستعمل من أجزاء الحركة الى ما لا يستعمل منهـا . وعمر الانسان وان طال ، بل أعمار عدة قرون متتالية تقصر عن مقدار الحاجة الى ذلك . فلأجله يمتنع استبداد المرء فى هـــذا الباب بالعمـل ، ويضطر فيه الى قيام شخصين على طرفى تلك المـدة الطويلة ، يتقدم أحدهما ويتأخر الآخر فيقلده . ومن استعمل فى

هذا المبحث مالم يتوله ، تضاعف تقليده . فان كان ولابد من التقليد ، فأولى بالانسان أن يأخذ بما تولاه ، ويضيفه الى أعمال غيره كى يزول وصمة التقليد عنده » .

وقد قارن البيرونى بين أرصاده وأرصاد ميطن واقطيمن من علماء اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكذلك بأرصاد أرسطرخس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم برصدتين لبطلميوس. وخرج له من تلك المقارنات أربع نتائج مختلفة هى على التوالى ٣٦٥ر٢٤٢٦ ، ٣٦٥ر٢٤٢١ ، ٣٦٥ر٢٣٩٨ ، ٣٦٥ر٢٤٠٨ يوما (طول السنة الحقيقى ٣٦٥ر٢٤٢٢) . ونرى من ذلك أن أكبر فرق عن القيمة الحقيقية لطول السنة يقل عن ثلاث دقائق ونصف .

ولما قارن أرصاد هؤلاء العلماء بعضهم ببعض ، وجد اختلافا كبيرا فى النتائج . وقد أرجع ذلك الى تخاليط فى التواريخ :

« فسبب هذه التخاليط هو استعمال الشهور فى غير سنيها ، واستعمال شهور مختلفة لأمم متباينة ، ان كان حينئذ أمرها له معلوما فانه خفى علينا مجهول » .

والمصدر الذى استقى منه البيرونى معلوماته عن تلك الأرصاد وتواريخها هو كتاب المجسطى لبطلميوس . وقد دلل على اختلاط التواريخ فى المجسطى بضرب أمثلة عديدة من هذا الكتاب .

وتتناول المقالة السابعة من القانون المسعودى حركات القمر وأحواله وأشكال مساراته وقياس بعده عن الأرض وغيرها من الموضوعات الفلكية . وقد اعتمد فى هذه المقالة على أرصاد وآراء بطلميوس مع مناقشة التفاصيل كلما وجد الى ذلك سبيلا :

« أما اذا تقدم من ذكر أحوال الشمس ما أمكن تقريره فى الوقت بحسب ما سمح الزمان به ، فان الترتيب التعليمى يوجب

اردافه بذكر أحوال القمر ، وتصحيح ما يمكن منها ، والرجوع فيما بقى الى عمله بطلميوس الى أن يتفق التوفيق لمجتهد فيرصد ، أو يقع اليه من الأرصاد ما يتمكن به من المطلوب » .

وقد قام بحساب جداول جديدة لمواقع القمر بعد تصحيح حركاته . وقد استخدم فى ذلك كسوفات قديمة ذكرها بطلميوس وكسوفات حدثت فى عهده ورصدها بنفسه ، حتى يقل الخطأ الى أدنى حد ممكن . ورغم أنه لم يثق فى حكايات بطلميوس عن الكسوفات القديمة بعد أن فندها وناقشها ، الا أنه لم يجد بدا من استخدامها :

« دعا الى استعمالها ضرورة الحاجة الى زمان ، كلما كان أطول ، كان الحاصل فيه الى الحق أقرب . ولولا ذلك لما كنت أعدل عن التى تولاها بطلميوس ، اذ لم يغشها ما غشى تلك المقدمة » .

وفى معرض حديثه عن عرض القمر ، ذكر أنه افترض فى حساباته السابقة أن مساره حول الأرض منطبق على مسار الأرض حول الشمس كتقريب مبدئى نتدرج منه الى الحقيقة باستخدام طريقة التقريب المتتابع المعروفة فى الرياضيات الحديثة :

« فليعلم أن أحوال القمر ، بل جميع المتحركات العلوية (الكواكب) ، لا يستطاع ادراكها دفعة ، وانما يتغير على شىء منها . فيوجد أولها بالجليل من الأمر والتقريب من الحق ، ويتدرج منه الى الثانى على مثال تلك الحالة ، ثم يعاديه الى الأول فيعمل ثانية ليدق ويتناول الثانى شيئا من تلك الدقة . ويتدرج بهما الى الثالث ، ثم يرجع منه كذلك الى المبدأ . ولا يزال يفعل ذلك ، وهذا مافى وسع المجتهد » .

ثم يشير الى زاوية الميل هذه ـ أو أعظم عروض القمر ـ

فيسجل وجود اختلاف بين الآراء وعدم سنوح الفرصة له كى يتعرف على الحقيقة :

« ولم يقع على أعظم عروض القمر اتفاق الى الآن . فان الهند مطبقون فيه أنه أربعة أجزاء ونصف جزء (½ ٤ درجة) ، وبطلميوس يذكر أنه وجده خمسة أجزاء . وهو فى زيج حبش الحاسب أربعة أجزاء ونصف وسدس وعشر (٤٦َ ٤٥)» واستناده فى جميع أعماله الى أرصاد بنى موسى . ولم يتفق لى فيه أدنى شىء يستعان به على تعرف الحال . وأما المستريحون عن متاعب الاجتهاد ، المتفرغون للهزؤ بالمجتهدين والعناد ، فانهم لقبوا ما فى زيج حبش منه عرضا متوسطا ، يعنون بين رأى الهند وبطلميوس . كما لقبوا وجود سليمان بن عصمة للميل ميلا متوسطا ، عنوا فيما بين رأى يحيى بن أبى منصور وبنى موسى ، ووصفوهم بما نزههم الله عن مثله » .

ومع أن البيرونى اعترض على بطلميوس فى كثير من آرائه وأرصاده ، الا أنه لم يتوان فى أن يأخذ برأيه اذا اقتنع بصحته ، ومن ذلك زاوية الميل هذه . فبعد أن قام بتحليل الأرصاد والحسابات المسجلة فى الكتب ، وجد أنه « لهذا رأى بطلميوس فيه أولى بالاتباع » .

ومن المواضيع الأخرى المتصلة بالقمر والشمس والتى تناولها البيرونى فى شىء من التفصيل ، نجد الاختلاف بين مواقع القمر المرصودة من سطح الأرض وبين المواقع المثبتة بالجداول والمنسوبة الى مركز الأرض . وقد دلل من الكسوفات ــ وبطريقة مبسطة ــ على أن الشمس أكبر من الأرض ، والأرض أكبر من القمر . وكان جداله منصبا على استنتاج شكل ظل الأرض فى الجهة المضادة للشمس ، وفترة خسوف القمر عندما يكون قريبا أو بعيدا عن الأرض :

« فكسوف القمر بحسب دخوله فى ظل الأرض . وهذا الظل على احدى ثلاث صور بالضرورة .

احداهما : أن يمتد اسطوانيا لا يزداد مقداره على ازدياد المسافة . وذلك من لوازم تساوى قطر الشمس والأرض . لكن خرق القمر لهذا الظل على قطره يكون فى أبعاد مختلفة من الأرض ، فمتى كان الظل اسطوانيا ، استوت مدة قطع القمر اياه فى جميع الأحوال سواء كان ممن فلك التدوير فى أعاليه أو كان فى أسافله .

والثانية : أن يزداد اتساعا بازدياد المسافة ، وهو من لوازم زيادة قطر الأرض على قطر الشمس . وموجبه أن يكون مدة الكسوف فى أعلى التدوير أطول منها فى أسفله .

والثالثة : أن يزداد على المسافة تضايقا حتى يفنى على الانخراط ، وهو من لوازم زيادة قطر الشمس على قطر الأرض . وموجبه تقاصر مدة الكسوف فى الأعالى وتطاولها فى الأسافل . وهكذا وجد بالأرصادة الدائمة والاعتبارات المتواترة ، فتحقق منه زيادة قطر الشمس على قطر الأرض . وزيادة قطر الأرض على قطر القمر ، من جهة أن الانخراط يوجب نقصان قطر الظل عند القمر عن قطر الأرض . لكن القمر اذا اخترقه مكث فى ذلك مدة ، ولو لم يكن أصغر منه لم يمكث فيه » .

وفى المقالة الثامنة تناول بالتفصيل كسوف الشمس وخسوف القمر وكيفية حساب أوقاتهما ، ومعرفة مقدار الجزء المنكسف وموضعه ، ووصف انواع الكسوفات المختلفة . ومن أهم ماجاء فى هذه المقالة الباب الثالث « فى صفة الكسوفين وتصورهما والفرق بينهما وبين أشكال نور القمر قبل الاستقبال وبعده » . فقد ذكر فى ذلك الباب بعض المعلومات التى تهم المؤرخين ، عن معرفة القدماء لطبيعة الشمس والقمر ، وأن الأولى نورها ذاتى بينما القمر جسم مظلم يستمد نوره من الشمس . أما الكواكب ،

فقد اختلفت الآراء فى صددها ، فالبعض كان يعتبرها أجساما مظلمة مثل القمر (وهو الرأى الصحيح) بينما اعتقد الآخرون أنها نيرة مثل الشمس :

« الشمس مما لا يشك أحد من أهل الصناعة فى أنها نيرة ، والقمر غير نير كاستنارتها ، وانما يضىء منه الجانب المواجه للشمس ، على مثال استنارة الأرض والجدران وأمثالها من المستحصفة بوقوع الشعاع عليها وعدم نفوذه فيها لعدم الشفاف.

فأما الكواكب ، فلما لم يطرد فيها الدلائل الموجبة للقمر شكله الكرى ، تلونت آراء المجتهدين فى أنوارها ، فمنهم من أضافها الى مماثلة الشمس فى الاستنارة بنفسها ، ومنهم من رأى اضافتها الى مماثلة القمر فى قبول النور من غيره » .

كما فسر البيرونى فى هذه المقالة أسباب ظهور الفجر باستنارة الغلاف الجوى ، وبالمثل شفق مابعد الغروب ، مع تقسيم كل منهما الى ثلاثة أنواع :

« شعاع الشمس حاصل فى كل الهواء الذى فى تجويف الفلك ماخلا موضع مخروط الظل ، فانه غير واصل اليه . ولكن الانارة لا تكون للمشف . وكما قلنا انها للقمر وللأرض فقط من جهة استحصافها ، فانها أيضا للأجزاء المنفصلة منها أحوال الأرض مجتمعة كالغيوم ، ومفترقة كالهباءات . والبصر فى الظلام — وخاصة المتراكم منه البعيد الحواشى — أقوى على الادراك . فاذا اقتربت الشمس من الأفق للطلوع ، واشتد ميل مخروط الظل عنا ، قرب منا محيطه المستنير . والذى يلى الأرض منه أشد استنارة بالهباءات الأرضية التى فيه ، فأدركناها جملة غير منفصلة لأن أسافلها التى نحونا تكون مضيئة . وذلك هو الفجر ، وهو ثلاثة أنواع :

أولها مستدق مستطيل منتصب ، يعرف بالصبح الكاذب ويلقب بذنب السرحان ، ولا يتعلق به شيء من الأحكام الشرعية ولا من العادات الرسمية . والنوع الثانى منبسط فى عرض الأفق، مستدير كنصف دائرة يضيء به العالم ، فينتشر له الحيوانات والناس للعادات وتنعقد به شروط العبادات . والنوع الثالث حمرة تتبعها وتسبق الشمس ، وهو كالأول فى باب الشرع .

وعلى مثله حال الشفق ، فان سببهما واحد وكونهما واحد ، وهو أيضا ثلاثة أنواع مخالفة الترتيب لما ذكرنا . وذلك أن الحمرة بعد غروب الشمس أول أنواعه ، والبياض المنتشر ثانيها ــ واختلاف الأئمة فى اسم الشفق على أيهما يقع أوجب أن يتنبه لهما معا ــ ، والثالث المستطيل المنتصب الموازى لذنب السرحان » .

وفى موضوع امكان رؤية الهلال ، شرح الأسباب التى تمنع رؤيته حتى مع وجوده فوق الأفق ، ثم أوضح بالطريق الهندسى الحدود النسبية بين القمر والشمس والتى عليها تعتمد ظروف رؤية الهلال مالم تتدخل العوامل الجوية . ثم نجده يصف جهازا يسمى (البربخ) لرصد رؤية الهلال ، وهو أشبه مايكون بمناظيرنا الفلكية الحديثة ــ فيما عدا وجود العدسات أو المرايا ــ من ناحية حركته فى اتجاهين ، وتركيب أنبوبته ، وطلائها من الداخل باللون الأسود :

« وعلى هذا البربخ الذى ينصب على عمود له حركتان ، احداهما على نفسه حتى يدير البربخ فى جميع الاتجاهات والآخر بنرماذجة يمكن بها أن تحرك البربخ فى سطح دائرة الارتفاع الذى هو فيها لا يزول عنه . وأما البربخ فلا يقصر عن خمسة أذرع ، وسعته عن ذراع ، يجتمع فيه البصر ويقوى بظله وظلمته ، ويزاد فى ذلك بالتسويد جوفه من داخله » .

وتبدأ المقالة التاسعة بالتفرقة بين الكواكب والنجوم من حيث الحركة الذاتية للأولى فى مدارات حول الشمس تنعكس بتغير مواقعها نحو الشرق من يوم لآخر بالنسبة للشمس علاوة على الحركة العادية نحو الشرق نتيجة لدوران الأرض حول محورها . ولهذا السبب أطلق القدماء على الكواكب اسم الكواكب المتحيرة بينما أطلقوا على النجوم اسم الكواكب الثابتة . وأهم مافى هذه المقالة هو اكتساب العرب للحركة الثانية الذاتية للنجوم خلاف الشروق والغروب ، وهى نظرية أثبتتها الدراسات الدقيقة فى العصور الحديثة . وترجع صعوبة اكتشاف تلك الحركة الشرقية الى أنها من الصغر بحيث لا يمكن ملاحظتها الا بعد مضى عدة قرون يكون فيها النجم قد انتقل عن موقعه الأصلى مسافة يمكن قياسها . وفى ذلك يقول البيرونى :

« قيل فيها أنها كلها متحركة نحو التوالى بحركة واحدة شرقية على مثال تحركها جملة بالحركة الغربية . وأى شىء أظهر فيها من وجود ابرخس قلب الأسد (ألمع نجم فى كوكبة الأسد) متقدما للدائرة المارة على الأقطاب الأربعة (قطبى محور الأرض وقطبى فلك البروج) الى خلاف التوالى بسدس جزء (١٠ً) ، وكونه الآن مجاوزاً اياها الى التوالى بأكثر من نصف برج (١٥°) . فظاهر أنه متحرك ، الا أن شكله (أى وضعه) من سائر الكواكب (النجوم) باق على حاله ، فكلها اذن متحركة حركة مشابهة لحركته » .

ويستطرد بعد ذلك فيبرهن أن هذه الحركة للنجوم على محور فلك البروج ، ويبحث تأثير وجود هذه الحركة على خصائص النجم كالشروق والغروب وموقعه بالنسبة للنجم القطبى ولنقطة الاعتدال . ولم ينس هذا التأثير عندما وضع جداوله لمواقع النجوم حيث جمع ١٠٢٩ نجما ، وصف مكان كل منها فى كوكبته وأعطى موقعه الى أقرب دقيقة قوسية ، وقدره

كما رآه بطلميوس والصوفى . أما التصحيح الذى أضافه فكان للموقع :

« قد أثبت فى هذه الجداول مافى كتاب المجسطى (كتاب بطلميوس) من مواضع الكواكب بزيادة ثلاث عشرة درجة على أطوالها لما تقدم ذكره ، بعد العناية الصادقة بتصحيحها من عدة نسخ وتراجم مختلفة ثم الحاق ما وجب الحاقه بها بعد تصييره مثلها ، والاجتهاد فى تقويم ما عثر أبو الحسين بن الصوفى على اختلال منه ، بعد استنكار أمره ، والتعجب من قلة اهتزازه لتولى تصحيح ذلك » .

وعند تقسيم النجوم حسب أقدارها (درجة لمعانها) أشار الى جداول بطلميوس المحتوية على النجوم وأقدارها والى توسط بعض النجوم بين قدر وآخر حتى أن أبا الحسين الصوفى نقلها فى جداوله من مرتبة الى أخرى . ولعل تلك أول فكرة فى تقسيم الأقدار الصحيحة للنجوم الى كسور ، وهو المعمول به فى الوقت الحاضر .

وأنهى البيرونى حديثه عن النجوم بذكر منازل القمر ونجومها طبقا لرأى العرب والهند . فقد لاحظ القدماء انتقال القمر فى السماء من ليلة الى أخرى وابتعاده عن الشمس حتى يعود اليها بعد شهر قمرى . ولهذا قسم العرب دائرة مساره الى ثمانية وعشرين قسما ، يحل القمر فى كل منها يوما بأكمله ، أو كما يظهر للراصد ليلة فى كل قسم ... فهو فى هذا أشبه بالمسافر كلما جن عليه الليل ، هرع الى مكان ينزل فيه حتى الصباح ، ولذا أطلق العرب على تلك الأقسام اسم منازل القمر . أما الهند فقد قسمت فلك القمر الى سبع وعشرين منزلة فقط . وقد سجل البيرونى أسماء منازل القمر وما يحتويه كل منها من نجوم .

واختتم المقالة بذكر الأنواء والبوارج على مذهب العرب . فمن

المعروف أن مسار القمر قريب من المسار الظاهرى للشمس ، ولذلك تكون بروج المسار الشمسى متاخمة لمنازل القمر بحيث أن كل برج يجاوره منزلتان وثلث منزلة . ومعنى ذلك أن الشمس تجاور كل منزلة لفترة تبلغ ثلاثة عشر يوما ثم تنتقل الى التى بعدها ، حتى تعود الى الأولى بعد عام كامل . واذن يكون طلوع منزلة معينة مع شروق الشمس واقعا فى وقت محدد من أوقات السنة .

وقد انفرد العرب بربط تلك الخواص لمنازل القمر بأحوال الجو والرياح والأمطار ، اذ أن طلوع كل منها يشير الى حلول فصل من الفصول أو فترة من فترات هطول الأمطار أو هبوب الرياح . وقد لفت أنظار العرب صعود تلك المنازل من الأفق الى أعلى فى بطء شديد ، أشبه بجمل ناهض ينوء بحمله الثقيل ، ولذا أطلقوا على ذلك الحدث اسم الأنواء ... وبمضى السنين اقتصر استعمال ذلك الاسم على المنازل التى تحمل معها بشرى هطول الأمطار ــ الأمر الذى كان يعنيهم أكثر من غيره ــ ثم امتد استعماله فشمل الأمطار نفسها .

وقارن البيرونى بين هدف كل من العرب والهند من دراسة تلك المنازل . فالهند استعملتها بقصد التنجيم والتنبؤ بالحوادث ، بينما اهتم العرب بها كما ذكرنا للربط بينها وبين أحوال السنة وفصولها وما يحدث فيها من تغير فى أحوال الجو وغيره .

وفى المقالة العاشرة من القانون المسعودى انتقل البيرونى الى الحديث عن الكواكب ، فأعطى شرحا هندسيا وافيا لحركاتها ، وفسر مع البرهان أسباب حركاتها المستقيمة والاقامة والرجوع العارض وهى راجعة الى الحركة النسبية بين الأرض وبين تلك الكواكب . فنتيجة لحركة الأرض حول الشمس وحركة الكوكب

فى نفس الوقت ، نشاهده وقد سار فى مساره العادى ثم اذا به يتوقف عن الحركة ثم يتراجع الى الخلف . وبحث البيرونى كذلك فى حركة أوج الكواكب وتصحيح جداول مواقعها ، واختتم المقالة باقتران كل كوكبين ـ أى باجتماعهما معا فى مكان واحد من منطقة البروج ـ ثم شروط حجب أحدهما للآخر وحجب القمر لكل كوكب .

وخير ما نختتم به الحديث عن كتاب القانون المسعودى ، هو ما اختتمه به البيرونى فى حديثه عن المنجمين . لقد ذكرنا من قبل أن البيرونى أشار فى عدد من مؤلفاته الى عدم ايمانه بالتنجيم ، ومع ذلك فقد اختص المقالة الأخيرة من القانون المسعودى بالحديث عنه ، ولكنه تناول الموضوع من الناحية الرياضية وطرق الحسابات الفلكية البحتة التى يحتاجها المنجمون . ولم ينس ـ كعادته ـ فى بداية هذه المقالة أن يسجل سخطه على المنجمين :

« هذه الصناعة (علم الفلك الحقيقى) التى قصر الكتاب عليها ، على استغنائها بذاتها لنفاسة قدرها فى نفسها ، لا تكاد تميل اليها القلوب التى لا تتصور كيفية اللذة الا فى مقدمات الآلام الجسمانية ، ولا النفع الا فى الأمور الدنياوية . واذا لم ترغب فيها رغبت عنها وعافتها ، فعادتها وأهلها . ولهذا السبب رجز القدماء أكوان العالم بقضاياها ، وطرقوا الى تقديم المعرفة بها من تأثيراتها طرقا ، أشبهت شيئا من الاقناع ، وفننوا عليها صناعة الأحكام (التنجيم) » .

مراجع الكتاب

١ ـ تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن للبيرونى ـ تحقيق الدكتور ب . بولجاكوف ومراجعة الدكتور امام ابراهيم أحمد (معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ١٩٦٣) .

٢ ـ المقالة الثالثة من القانون المسعودى ـ تحقيق الدكتور امام ابراهيم أحمد (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٦٥) .

٣ ـ القانون المسعودى (المطبعة العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند) .

٤ ـ القانون المسعودى للدكتور امام ابراهيم أحمد (تراث الانسانية ـ المجلد الثانى ص ٤٠٦) .

٥ ـ تحقيق ما للهند من مقولة ـ تحقيق الدكتور أحمد محمد الساداتى (تراث الانسانية العدد الثانى المجلد الثالث) .

٦ ـ أبو الريحان البيرونى ـ للأستاذ أبو الفتوح التوانسى (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية) .

٧ ـ رسائل البيرونى (المطبعة العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند) .

٨ ـ استخراج الأوتار فى الدائرة للدكتور أحمد سعيد الدمرداش (تراث الانسانية المجلد الثانى ص ١٥٤) .

٩ ـ البيرونى ومكانته فى تاريخ العلم للدكتور جمال مرسى بدر ـ المجلة نوفمبر ١٩٥٨ .

١٠ ـ مقام العقل عند العرب ـ قدرى حافظ طوقان ـ طبع دار المعارف .

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون ...	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمود أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب ارسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ احمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ ـ رفاعة الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . أنور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ـ موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ ـ أبو بكر الطرطوشى	د . جمال الدين الشيال
٧٥ ـ يونس بن حبيب	د . حسين نصار
٧٦ ـ صقر قريش	عبادة كحيلة
٧٧ ـ البيرونى	د . محمد جمال الفندى د . امام ابراهيم أحمد

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com
twitter مكتبة لسان العرب
facebook مكتبة لسان العرب
instagram مكتبة لسان العرب

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تلتقي مع القارئ العربي على طريق الثقافة والمعرفة

فتقدم

ألحان مصرية

للأستاذ صالح جودت

ناي وشموع

للأستاذ محسن الخياط

تطلب من الشركة القومية للتوزيع ومكتباتها

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

فرع مصر – ١٩٦٨